

روايات عالمية للجيب 59



Looloo

www.dvd4arab.com

أسطورة

سليبي هولو

تأليف: واشنطنغتون إيرفينج

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق

المؤلف



واشنطن تون إرفنج
Washington Irving أديب
أمريكي شهير ، عرف
بقصتيه (ريب فان وينكل)
و (أسطورة سليبي هولو)
اللتين نقدمهما لك هنا . ولد
في نيويورك عام ١٧٨٩
وكان له أحد عشر أخا . كان
أبواه مهاجرين اسكتلنديين

أعجبا بجورج واشنطن بطل الاستقلال الأمريكي ، لذا
اتخذا هذا الاسم لابنهما ، ويقال في قصة أخرى أن
واشنطن تون هو الذي اقترح اسمه على الأبوين ..
وشغف بالقراءة في طفولته لكن رسخت في ذهنه بشكل
خاص قصتا (روبنسون كروزو) و (سندباد الملاح) .

كان (واشنطن تون إرفنج) هو أول أمريكي على
الإطلاق يكسب عيشه بالكامل من قلمه ، بالإضافة لهذا
كان رحالة ومصمما معماريا دبلوماسيا !

بدأ الكتابة في الصحف وكسب بعض الشهرة ، إلا أن مأساة شخصية ألفت به عندما توفيت خطيبته (ماتيلدا) في سن الثامنة عشرة ، وهذا هو السبب الذي جعله لا يتزوج طيلة حياته ، ولم يتكلم عنها قط برغم أن صورتها كانت تلاحقه طيلة الوقت ..

كان مولعاً بالسفر لذا خصص جزءاً كبيراً من وقته في ارتياد أوروبا . وفي العام ١٨٠٩ قدم لنا حكايات ساخرة عن الجالية الهولندية في نيويورك ، وابتكر شخصية مضحكة تدعى (ديدرتش نيكربوكر) المفترض أنه عالم هولندي يقيم في نيويورك .. الطريف أن مصطلح (نيكربوكر Knickerbocker) صار رمزاً لجيل الكتاب الأمريكيين الأول ، كما يكنى به أي أمريكي يكتشف أن أصول أسرته هولندية .

قدم لنا واشنطنجتون مجموعة قصصية تدعى (بريسبريدج هول) .. ثم تلاها بمجموعة (كتاب السكتشات) الذي بدأ تأثره واضحا بالقصص الشعبية الألمانية ، كما في قصتي (ريب فان وينكل)

و (أسطورة سليبي هولر) . والحقيقة هي أن إرفنج اعترف أكثر من مرة بأن موهبته القصصية ضعيفة فلا يستطيع خلق حكاية بالكامل من لا شيء ، وهو ليس عينا قاتلاً إذا تذكرنا أن شكسبير نفسه لم يقدم أية قصة أصيلة . قصة (أسطورة سليبي هولر) هي التي قدمت مع تصرف كبير كما سنرى حالاً في فيلم الرعب الشهير لـ (تيم بيرتون) عن الفارس مقطوع الرأس الذي يخيف الناس في مقاطعة (سليبي هولر) ، وهي بالمناسبة منطقة حقيقية جنوبى نهر هدسون قرب نيويورك . هذه القصة مشتقة عن قصة للألماني (كارل موزويس) .. وقد أنتج أوبريت عنها باسم (الفارس مقطوع الرأس) ..

بعد هذا توالى أعماله مثل (كولومبوس ١٨٢٨) و (غزو غرناطة ١٨٢٩) .. وكلها تعتمد على بحث تاريخي بالغ الدقة . مع الوقت صار خير سفير للولايات المتحدة اليافعة في أوروبا والعالم ، إذ أحبه الأوروبيون والأسبان بشكل خاص ؛ ولهذا عينه الرئيس الأمريكي سفيراً فعلياً للولايات المتحدة في إسبانيا . كان صديقاً

حميمًا لكاتبة فرانكنشتاين (ماري شيللي) . وعندما زار تشارلز ديكنز العظيم أمريكا طلب لقاءه لأنهما كانا يتبادلان المراسلة بانتظام ، وألقى خطابًا شكر فيه واشنجتون على مساندته له في رواياته .

في العام ١٨٥٥ بدأ كتابة سيرة سميث (جورج واشنجتون) ، كما كتب كتابًا مهمًا عن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - هو (محمد وأتباعه) .

توفي واشنجتون إرفنج في ٢٨ نوفمبر عام ١٨٥٩ ، وكانت آخر كلمة قالها قبل أن ينام ليلاً : « على أن أرتب وسادتي لليلة أخرى مرهقة .. ليت هذا كله ينتهي !! » . في الصباح لم ينهض من النوم .. كأن كل هذا انتهى فعلاً .. ودفن في مقبرة (سليبي هولو) الخاصة بالكنيسة الهولندية في نيويورك ، كآته اختار أن يكون قبره في البلدة التي دارت فيها أهم قصصه .

دكتور أحمد خالد

روايت مصرية للجيب .. روايت عالمية

٩

الشیطان وتوم ووكر

على بعد أميال قليلة من بوسطون في ماساتشوستس ، ثمة مدخل ضيق يتلوى عدة أميال في قلب الريف ، وينتهي في مستنقع كثيف الأشجار . على جانب هذا المدخل يوجد بستان جميل ، وعلى الجانب الآخر ترتفع الأرض بحدة عن حافة الماء لتشكل تلة عالية تناثرت عليها أشجار بلوط عملاقة عجوز .

تحكى القصص الغابرة أنه تحت واحدة من هذه الأشجار العملاقة يوجد كنز عظيم دفنه القرصان (كيد) . لقد كان المدخل يسهل جلب المال ليلاً في قارب إلى قمة التل . وكان ارتفاع المكان يتيح نظرة شاملة تتأكد بها أنه ما من شخص يراقب ما يحدث ، بينما كانت الأشجار علامات ممتازة تسهل العثور على موضع الكنز ثانية ..

تضيف القصص أن الشيطان يشرف على تخبئة المال ، ويعتبر ذلك مسئوليته الخاصة .. على كل حال

من المعروف أنه يفعل ذلك مع الكنوز كلها خاصة إذا كان مصدرها إجرامياً . مهما كان الأمر لم يعد (كيد) قط لاسترداد ثروته لأنه اعتقل في بوسطون بعد هذا ، وسبق إلى إنجلترا ليشنق بتهمة القرصنة .

حوالي العام ١٧٢٧ عندما اجتاحت الزلازل (نيو إنجلند) ، كان يعيش شاب فقير تعس يدعى (توم ووكر) . كانت له زوجة تصة مثله وقد بلغ منهما الفقر مبلغ أنهما كانا يخدعان بعضهما .. كانت تخبئ كل ما تقدر على وضع يدها عليه ، وكانت تسرق بيضة الدجاجة بمجرد نزولها .. كان زوجها يراقبها بحرص ليعرف ما تداريه عنه ، ولكم من معارك نشبت بينهما بسبب ما كانا يعتبرانه ملكية مشتركة .

كانا يعيشان في بيت باتس يوحى منظره بالجوع . ومن مدخنة البيت لم يخرج دخان قط .. وعلى بابهما لم يتوقف مسافر قط . كان حصان تعس بارز الأضلاع كأنها قضبان المشواة يرعى حقلاً تغطي فيه طبقة

واهنة من الطحلب حواف الصخور المشرشرة .. أحيانا كان يطل برأسه من فوق السور متوسلاً لعبري السبيل كأنه يطلب من ينقذه من أرض المجاعة تلك .

كانت امرأة (توم) سليطة اللسان شرسة الطباع عالية الصوت قوية الذراعين ، وكان صوتها يسمع دوماً أثناء حرب الكلمات مع زوجها ، وكنت ترى على وجهه أحيانا علامات تدل على أن المعركة لم تكن كلامية فحسب . لكن لم يجسر أحد قط على التدخل بينهما .. فقط يفر من يسمع المشادات مهنئاً نفسه - إذا كان عزباً - على عزوبته .

ذات يوم اتجه (توم) إلى مكان بعيد عن الدار ، فسلك ما اعتبره ممراً مختصراً عبر المستنقع . وككل الطرق المختصرة كانت اختياراً عقيماً . كانت نباتات الصنوبر والشوكران تغطي المستنقع وبعضها بارتفاع تسعين قدماً ، مما جعله مظلماً في وسط النهر وسأوى لكل اليوم في المنطقة . كان مليئاً بالحفر التي غطتها

الأعشاب والطحالب مما يخدع المسافرين ويجعله يقع في الوحل الأسود ، كما كانت هناك برك راکدة حيث تعيش ثعابين الماء بينما ترقد جنوع الصنوبر نصف متعفنة نصف غارقة كأنها تماسيح غافية ..

راح (توم) يستكشف طريقه وسط الغابة المخادعة ، بين غصون الأشجار المتشابكة .. ومن أن لآخر يثير رعبه صراخ (مالك الحزين) أو صياح بطّة برية تنهض من بركة قريبة . في النهاية بلغ أرضاً صلبة تتوغل في قلب المستنقع كأنها شبه جزيرة .

كانت هذه الأرض من قلاع الهنود الحصينة أثناء قتالهم مع المستعمرين ، هنا أنشئوا حصناً اعتبروه لا يقهر وداروا فيه أطفالهم ونساءهم . لم يبق شيء من الحصن القديم ما عدا بعض الجسور التي غاصت لمستوى الأرض التي تحيط بها . وقد غطتها النباتات الكثيفة التي يتناقض لونها مع لون الصنوبر والشوكران الداكن المحيط به .

بلغ (توم وكر) الحصن القديم في وقت الغبشة ، فتوقف هناك ليلتقط أنفاسه . ما كان أحد سواه ليوقف هنا لأن الناس اعتادوا أن يكرهوا هذه البقعة ، بسبب القصص التي تتوارد حولها منذ زمن حروب الهنود ، حيث قالت الإشاعات أن الهنود كانوا يقيمون صلواتهم هنا ويقدمون الأضحيات للأرواح الشريرة . لكن (توم وكر) لم يكن بالرجل الذي يشغل باله بأية مخاوف من أي نوع .

استراح على جذع شجرة ساقطة بعض الوقت وهو يصفى لصياح ضفادع الأشجار ، ويبحث بعصاه في كومة تراب أمامه .. فبينما هو يفعل ذلك شارد الذهن اصطدمت عصاه بشيء صلب . أزاح كومة النباتات فها للعجب لقد وجد جمجمة مهشمة استقر فيها فأس هندي .

وأظهر الصدا على نصل الفأس أن زمناً قد مر منذ وجهت ضربة الموت تلك . كانت لحظة عراك مفزعة تم في هذا المكان منذ أعوام .

ركل الجمجمة ليسقط الغبار عنها وقال :

- « أف ! »

هنا دوى صوت أجش :

- « دع الجمجمة فى حالها !! »

رفع توم عينيه فرأى رجلاً أسمر عملاقاً يجلس أمامه مباشرة على جذع شجرة مقطوعة . أصابه الذهول لأنه لم يسمع الرجل يقترب كما أصابته الدهشة لأنه وجد أن الرجل لم يكن زنجياً أو هندياً . حقاً كان الرجل يلبس زياً هندياً خشناً ويلف حول جسده حزاماً أحمر ، لكن وجهه ليس أسود وليس له لون النحاس لكنه داكن ملوث بالسخام ، كأنه يقضى فترات طويلة بين النيران وأدوات الحدادة . كان له شعر أسود خشن ينتصب فى كل الجهات ، وكان يحمل فأساً فى يده .

وللحظات ظل يحدق عابساً فى (توم) بعينين حمراوين كبيرتين .

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ١٥

ثم قال بصوت عميق خفيض :

- « ماذا تفعل فى أرضى ؟ »

قال (توم) :

- « هذه لم تعد أرضك كما أنها ليست أرضى .. إنها أرض (ديكون بيودى) .. »

قال الغريب :

- « قليلعن (ديكون بيودى) .. سوف تلحق به اللعنة ما لم يهتم بخطاياك أكثر وينس خطايا جيرانه .. انظر أيها الشاب لترى كيف يصير (ديكون بيودى) .. »

نظر (توم) إلى حيث أشار الغريب فرأى واحدة من الأشجار العملاقة مورقة لكنها متعفنة فى القلب ، حتى أنها توشك على السقوط مع أول ريح . وعلى غصن الشجرة كتب اسم (ديكون بيودى) . نظر حوله فوجد أن كل الأشجار العملاقة تحمل أسماء رجال مهمين فى

للمستعمرة ، وأن تلك التي جلس عليها تحمل اسم
(كراتشيلد) وهو رجل ثرى ذو نفوذ يستعرض ثروته
بطريقة سوقية . ويقال سرًا إنه جمع ثروته عن طريق
المضاربة فى البورصة .

قال الرجل الأسمر وهو يزمجر فى انتصار :

- « إنه متأهب للحرق ! كما ترى لدى خزين ممتاز من
الخشب للشتا . »

قال (توم) :

- « لكن بأى حق تقطع خشب (ليكون بيبودى) ؟ »

قال الآخر :

- « حق وضع اليد .. هذه الأرض كانت تخصنى قبل
أن يضع واحد من جنسكم الأبيض قدمه عليها .. »

- « وهل لى أن أتجاسر وأسأل عن اسمك ؟ »

- « أوه .. إن لى أسماء عدة .. أنا لصيد المتوحش
فى بعض البلدان ، والحفار الأسود فى بلدان أخرى .. »

فى هذه الأصقاع يطلقون على (الحطاب الأسود) ..
من أجلى خصص الرجال الحمر هذه البقعة ومن حين
لآخر ضحوا برجل أبيض .. ولما كان جنسكم الأبيض
قد أبدا الرجال الحمر ، فأنا أتسلى برعاية المهرطقين
وتجار العبيد وساحرات (سيلم) .. »

قال (توم) فى ثبات :

- « لو لم أكن مخطئاً فأنت كذلك تعرف بابليس .. »

هز الرجل رأسه وقال :

- « فى خدمتك .. »

كانت تلك بداية المقابلة حسب القصة القديمة ، برغم
أنها مألوفة لدرجة تدفع للشك . من الطبيعى أن تفترض
أن لقاء شخص عجيب كهذا فى هذا المكان المقفر لا بد
أن يهز أعصابك ، لكن (توم) كان قوى الشكيمة
لا يخاف بسهولة ، وكانت حياته مع زوجته سليطة
اللسان كفيلة بجعله لا يخاف الشيطان .

يحكى أنه بعد هذه المقابلة دارت بينهما محادثة طويلة دافئة فى طريق عودة (توم) لداره .. أخبره الرجل الأسمر بالمال الوفير الذى دفعه كابتن (كيد) تحت أشجار البلوط قرب المستنقع . كل هذا المال تحت أمره وسيطرته .. عرض على (توم) أن يمنحه هذا المال لأنه أظهر لطفًا نحوه ، لكن لابد من تحقيق شروط معينة .

يمكن استنتاج هذه الشروط بسهولة برغم أن (توم) لم يعلنها قط .. لابد أنها كانت عسيرة لأن (توم) طلب وقتًا للتفكير ، وهو لم يكن بالرجل الذى يهتم بالتفاصيل ما دام المال فى مرأى عينه : عند حافة المستنقع توقف الرجل .

سأله (توم) :

- « ما دليلى على أن ما قلته صحيح ؟ »

- « هذا هو توقيعى .. »

قالها الرجل وألقى إصبعه بجبين (توم) .. ثم توارى بين الأشجار الكثيفة وبدأ كما خيل لـ (توم) أنه يهبط ويهبط ويهبط .. حتى توارى تمامًا فى الأرض .

حينما بلغ توم داره وجد علامة الإصبع المشتعل على جبينه ، وقد صار من المستحيل محوها .

أول ما أخبرته به زوجته هو وفاة (أبسالوم كراونشيلد) مضارب البورصة الثرى .. لقد أعلن هذا فى الصحف مع العبارة المعتادة : « اليوم هلك رجل عظيم من بنى إسرائيل » .

تذكر (توم) الشجرة التى قطعها صديقه والتى أعدت للحرق .. فقال لزوجته :

- « فليحترق هذا اللص .. من يبالى ؟ »

الآن أدرك أن كل ما رآه وسمعه لم يكن وهمًا .

لم يكن مستعدًا للثقة بزوجته ، لكن هذا السر كان عسيرًا لذا أخبرها به . اشتعل جشعها لدى سماع

موضوع الذهب وأصرت على أن ينفذ زوجها شروط الرجل الغريب .. وبرغم أن توم لم يكن معتقاً عن بيع روحه للشيطان ، إلا أنه لم يكن مستعداً لأن يعمل هذا لمجرد مجاملة زوجته . لهذا أبدى التمتع لمجرد المخالفة . ودارت بينهما مشاجرات كثيرة لكن توم ظل مصراً على ألا يظفر باللغة الأبدية لمجرد أن يرضيها .

هكذا قررت أن تتولى هي أمر الصفقة ، فإذا فازت بها أخذت المال كله لنفسها .

كانت من طراز زوجها الذي لا يخاف شيئاً ، لذا انطلقت نحو الحصن الهندي في نهاية اليوم . غابت عدة ساعات وعندما عادت كانت متحفظة في إجاباتها . تكلمت عن رجل قابلته في وقت الغسق .. لكنه كان متجهماً غبوساً ولم يتفق معها على شيء .. قررت أن تذهب ثانية لاسترضائه بعرض خاص لكنها لم تحدد ما هو ..

في الليلة التالية انطلقت للمستنقع وقد حشت منزلها بأشياء ، وظل توم ينتظر ويبتظر بلا جدوى .. جاء منتصف الليل لكنها لم تظهر .. عاد الصباح فالظهيره فالمساء لكنها لم تعد . بدأ توم يقلق على سلامتها خاصة أنها أخذت معها إثناء الشاي الفضي والملاعق وكل شيء له قيمة ما . مر يوم آخر ويومان بلا زوجة .. بعبارة أخرى نقول إن أحداً لم يسمع عنها ثانية ..

ماذا كان مصيرها ؟ هذا لا يعرفه أحد .. هناك كثيرون زعموا أنهم يعرفون .. وهي من الحقائق التي اختلطت على المؤرخين .. زعم البعض أنها ضلت طريقها وسقطت في بركة وحل ، وقال آخرون في قسوة أنها هربت بغنيمة الثمينة .. وقال آخرون إن المضلل اقتادها إلى مستنقع وجدوا قبعتها تسبح فوقه . وللتأكيد قيل إن رجلاً أسمر يحمل فأساً على كتفيه شوهد خارجاً من المستنقع وفي يده حزمة ملفوفة في منزر ، وقد بدا عليه الانتصار .

أقرب القصص للاحتمالية تقول إن (توم ووكر) قلق عليها لدرجة أنه راح يبحث عنها فى الحصن الهندى ، وقد راح يفتش المكان الكئيب طيلة عصر صيف حار لكن لا زوجة .. ناداها مرارا لكنها لم تسمع .. فقط لبي النداء طائر (مالك الحزين) وحلق صارخا ..

عند الأفق وفى ضوء الغروب إذ راح البوم ينطق ، شد انتباهه تحليق الغربان فوق جيفة عند شجرة سرو .. دقق النظر فرأى حزمة معلقة من أحد غصون الشجرة يقف جوارها نسر هائل كأنما يحرسها .

وثب فرحا وقد عرف أنه منزر زوجته ، فلابد أنه يحوى تلك الكنوز التى أخذتها من البيت . وقال مغزيا نفسه :

« فلنأخذ ممتلكاتنا .. ولسوف نتعلم كيف نعيش من لون المرأة .. »

إذ مشى للشجرة ، فرد النسر جناحيه وطار صارخا فى ظلال الغابة . أمسك توم بالمنزر وفتح له لكن يا للحسرة ! لم يجد بالحزمة إلا قلبا وكبدا ..

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ٢٣

هذا هو كل ما بقى من زوجة توم كما تقول أكثر القصص القديمة مصداقية . لا بد أنها حاولت مساومة الرجل الأسود كما كانت تسام زوجها ، وبرغم أن المرأة الشرسة يمكن أن تكون صنوا للشيطان إلا أن حظها لم يكن حسنا فى تلك المرة . ويبدو أنها ماتت بذات الشراسة لأنه كانت هناك قبضات من الشعر يبدو أنها انتزعتها من الحطاب . وكان توم يعرف براعة زوجته عن خبرة ، لذا هز كتفيه وقال لنفسه :

« رياه .. لا بد أن الشيطان العجوز عالى كثيرا .. »

عزى توم نفسه عن فقد ماله وزوجته ، وشعر بنوع من الامتنان للحطاب الأسود الذى قدم له معروفا . أراد أن يوطد معرفته به أكثر لكنه لم ينجح . إن الشيطان خجول لا كما يتصور بعض الناس .. ولا يأتى عندما تنادى اسمه بهذه البساطة .. لأنه لا يلعب إلا عندما يكون متأكدا من النتيجة .

بعد فترة طويلة عندما التهبت لهفة توم بفعل التأخير ، وصار مستعدا لقبول أى شىء يقربه من

الكنز ، قابل الرجل الأسمر ذات ليلة في ثياب الحطاب
المعتادة ، وهو يندن نفمة ما . أصغى لعرض توم
بلا مبالاة ثم واصل ندنة نغمته .

إلا أن توم استطاع بعد وقت أن يفتعه .. هناك شرط
واحد لن نذكره لكننا نفهمه جيداً ، وهو الشرط الوحيد
الذى يحقق به الشيطان رغبات ضحاياه . لكن (توم)
كان ممتنعاً عن عدة شروط أخرى . لقد أصر الشيطان
على أن المال الذى يجده المرء عن طريقه لا بد أن
يكرس لخدمته .. لهذا أصر على أن يستثمر (توم)
ماله في التجارة السوداء .. بمعنى آخر كان عليه أن
يملك سفينة لتجارة العبيد . لكن توم رفض هذا .. كان
سينا في كل شيء لكن الشيطان نفسه ما كان ليقتعه
بأن يصير تاجر عبيد .

إذ وجد الشيطان أن توم ليس متحمساً لهذا ، لم
يصر عليه .. اقترح عليه أن يعمل مرابحاً .. إن
الشيطان يحب زيادة عدد المرابين وينظر لهم باعتبارهم

رجالهم المميزين . لم يعترض توم على هذا لأن هذا
يناسب توبه .

قال الرجل الأسمر :

- « سوف تفتح متجر سمسار في بوسطن الشهر
القادم .. »

- « يمكن أن أبدأ غذا لو أردت .. »

- « سوف تقرض المال مقابل فائدة ربوية ٢ %
شهرياً .. »

هتف توم :

- « رباه ! بل سأطلب ٤ % »

- « سوف تقود التجار للإفلاس و تستولى على تصكوك
العقارية .. »

صاح توم في حماس :

« سوف أرسل بالتجار إلى الشيب »

قال الشيطان :

- « أنت المرابى عن مالى إذن .. متى تريده ؟ »

- « هذه الليلة .. »

- « ثم ! »

هكذا تصافح الرجلان وعقدا صفقتهما ..

بعد أيام جلس توم ووكر فى مكتبه للمحاسبة فى بوسطون ، وقد انتشرت سمعته كرجل جاهز المال يقرضه بنسبة ربح عالية . يتذكر الجميع أيام الحاكم (بلتشر) عندما انتشر الكساد وملأت البلاد فواتير الحكومة غير المدفوعة . كان جنون بناء المدن قد أصاب الناس ، وراح سمسرة الأراضى يجوبون البلاد بخرائط تحكى عن مدن وكنوز لا يعرف أحد مكانها .. باختصار نشبت الحمى بدرجة مروعة ، وراح الجميع يحلم بتكوين الثروات من لا شىء .. كانت النتيجة المعتادة هى أن الحمى راحت ، ووجدت البلاد نفسها

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ٢٧

تثن تحت وطأة ما أنفقته ، وتمر الناس بما يمكن تسميته بـ (أوقات عصية) .

فى هذا الوقت بالذات صار (توم) مرابىا فى بوسطن .. امتلأ بابيه بالعملاء .. المفسامين وذوى الحاجة .. المضاربين والسمسرة الحالمين .. باختصار كل من كان يحلم بالمال هرع إلى توم . وقد لعب توم ببراعة دور (الصديق عند الشدة) . وكانت شروطه تتناسب فى صعوبتها مع حاجة الطالب .. لهذا كان يعتصر عملاءه ببطء ثم يخرجهم من عنده وقد جفوا كقطعة الإسفنج .

هكذا راح يكوم المال ونمت ثروته . بنى لنفسه بيتا واسعا على سبيل التباهى ، لكنه ترك أكثره بلا أثاث على سبيل البخل . بل إنه اقتنى عربية فاخرة لكن الخيول التى تجرها كانت على شفا الموت جوعا . كنت أسمع صرير العجلات غير المشحمة فتشعر أنها أرواح المدينين المساكين التى يعصرها فى قبضته .

إلا أن توم بدأ يقلق .. لقد فاز بخيرات هذا العالم لذا بدأ يقلق على العالم الآخر .. راح يفكر فى ندم فى الصفقة التى أجراها ، وراح يفكر فى سبيل لخداع الشيطان والتلاعب بالشروط .

بدأ يتردد على الكنيسة ويصلى بصوت عال كان للجنة يمكن اكتسابها بقوة الرنتين . كان متشدداً فى الدين كما هو متشدد فى أمور المال ، وكان يراقب جيرانه بحرص ، كأنه كان يعتقد أن أية خطيئة عندهم تضاف لرصيده هو فى الجنة . بل إنه راح يطالب بإعادة تقاليد إعدام الكويكرز .. باختصار صار توم ردىء للسمعة مثل ثروته .

وبرغم هذا كله كان توم يدرك يقيناً أن الشيطان سيطلب بحقوقه .. لذا راح يحمل إيجيلاً فى جيب معطفه ، وواحدًا على شكل لفافة فى مكتب المحاسبة .. وقد شوهد يقرأ فيه مراراً حين يدخل الناس للاتفاق معه . عندها يضع عويناته على اللفافة ليحدد مكان توقفه ثم يبدأ فى إجراء صفقات الربا .

قتلوا إن توم بدأ يجن فى أواخر حياته ، فلما شعر بقرب نهايته ابتاع لحصته حدوات جديدة وسرجاً ودفنه فى وضع مقلوب . لأنه تصور أن العالم سينقلب رأساً على عقب وفى هذه الحالة سيجد حصاته فى وضع صحيح متأهباً للركوب . على كل حال هذه القصة تخريف عجائز فلو كان قد قام بهذا التصرف لكان نوعاً من التزبد كما نقص علينا القصة فيما يلى :

ذات عصر حار كتبت عاصفة رعدية قادمة ، فجلس توم فى مكتبه بردائه الهندى الحريرى ، وكان على وشك أن يخرّب بيت مضارب تعمس الحظ .. توصل له سمسار الأراضى البائس أن يمنحه بضعة أشهر من التسهّل . لكن توم رفض أن يمهّل الفتى يوماً آخر .

قال سمسار الأراضى :

« سوف يخرّب بيت امرئى .. »

قال (توم) :

- « الإحسان يبدأ بالمرء نفسه .. وعلى أن أعنى
بنفسى فى هذه الأيام القاسية .. »

قال المضارب :

- « لكنا نلت الكثير من المال منى .. »

فقد توم صبره وقال :

- « فلما أخذنى الشيطان لو كنت قد حصلت منك على
ربع بنس .. »

هنا دوت ثلاث دقائق على الباب .. فوثب ليرى من
هناك .. رأى رجلاً أسود يمسك لجام حصان أسود يركل
بأقدامه فى نفاذ صبر .

قال الرجل :

- « تعال يا (توم) ! »

اتكمش توم لكن بعد فوات الأوان .. فلم يسبق
لخاطن أن أخذ على حين غرة مثله .. لقد أخذ الرجل

الأسود بخفة كأنه طفل فوق ظهر الحصان ثم انطلق
يرمح وسط العاصفة الرعدية . وضع الموظفون
أقلامهم خلف آذانهم وهم يحملون فى المشهد من
النوافذ . بعيداً رحل توم وثوبه الأبيض يتطاير فى
الريح ، وحوافر الجواد تطلق الشرر كلما لمست
الأرض . وكان الرجل الأسود قد اختفى .

هز مواطنو بوسطون الطيبون رؤوسهم ، لكنهم
كانوا قد اعتادوا الساحرات والعفاريت منذ أقاموا
مستعمرتهم تلك ، لهذا لم يصيبهم الهلع كما تتوقع .
تم تعيين أوصياء على ثروة توم لكنهم لم يجدوا
شيئاً .. كل صناديقه المليئة بالذهب وجدوها مليئة
بنشارة الخشب .. وفى الإسطنبول كان هيكلا عظيميان
بدلاً من جوائيه .. واحترق بيته فى اليوم التالى
وصار رمداً ..

تلك كانت نهاية توم ووكر وثروته الحرام .. فليحفظ
كل المرابين هذه القصة عن ظهر قلب .

لا يشك أحد في صدق هذه القصة ، فما زال بوسعك أن ترى تحت شجرة البلوط الحفرة التى استخرج منها كنز القرصان كيد .. ما زال بوسعك فى الليالى العاصفة أن ترى قرب الحصن الهندى شخصاً غامضاً على ظهر حصان يلبس ثوباً من حرير هندى .. فلا بد أنها روح المرابى المعذبة . وما زالت القصة تتردد فى مقولة شهيرة أقرب للمثل ، تسمعا حتى اليوم فى نيو إنجلند هى : (الشيطان وتوم ووكر) .

1824

الزوجة

إن كنوز الأعماق ليست بالشئ الثمين لو قارنتها بالمباهج الخفية لرجل يحتويه حب امرأة .. إننى لأشم رائحة البركات حينما أدنو من البيت ، فما أطيب العطر الذى يفوح من الزواج ! العطر الذى لا تفوقه أزهار البنفسج .. «

ميدلتون

* * *

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ٣٥

تكن كذلك خففوا عنك .. لقد لاحظت أن الرجل المتزوج إذا ألم به سوء الحظ، أقدر من الرجل العزب على استعادة مكانته .. جزئياً لأنه متأقلم على الكفاح بسبب ضروريات الحياة لهؤلاء الأحياء معدومي الحيلة الذين يعتمدون عليه .. والأهم أن هناك من يخفف عنه معاناته .. إن ثقته واحترامه بالنفس تتجدد من حقيقة أنه مهما كانت الحياة مذلّة قاسية في الخارج، فإن في بيته مكاناً يمكن أن يجد فيه بعض الحب ويعامل كملك .. بينما الرجل العزب يمكن أن يتهدم بسرعة كببت يتهاوى لأن أحداً لم يسكن فيه ..»

هذه الخواطر تعيد للذهن قصة منزلية صغيرة كنت شاهداً عليها . لقد تزوج صديقى الحميم (ليزلى) فتاة جميلة ذكية تربت بطريقة عصرية . لم تكن تملك ثروة .. هذا حقيقى .. لكن صديقى كان ثرياً وكان يحلم بأن يربها كل شيء جميل وغريب .. وقد قال لى : « سوف تكون حياتها كقصة خيالية من قصص الجنيات »

تناغمت اختلافات شخصيتهما .. كان رومانسى لطابع وكانت هى مفعمة بالحياة والبهجة . ولقد

كم من مرة علقت فيها على الثبات والجلد اللذين تقاوم بهما النساء عثرات الحظ وصروف القدر .. تلك العثرات التى تحطم روح الرجال وتمرغهم فى الغبار ، يبدو أنها تستدعى كل قوى الجنس الناعم وتهب شخصياتهن قوة وجرأة حتى ليبلغن مبلغ السمو . لا شيء يؤثر فى النفس أكثر من أن ترى فتاة رقيقة اعتادت الضعف والاعتماد على الآخرين وقد صارت هى عون وملاذ زوجها فى وقت الشدة ، تقاوم بحزم كل صنوف المحن المريرة .

نعم .. من الله هى تلك المرأة التى تعتمد على الرجل فى ساعاته السعيدة ، وتصير مأواه وسكناه فى ساعات الشدة .. تلتف كالكرمة حول طباعه الخشنة وتحمس رأسه من السقوط ، وتضم قلبه الكسير .

ذات مرة كنت أهنئ صديقاً لى امتلاك أسرة ترابطت بعاطفة قوية ، فقال بحماس :

« ليس لى أن أمل لك فيما هو أفضل من أن تظفر بزوجة وأطفال .. لو كنت ثرياً شاركوك ثرائك ، ولو لم

لاحظت مراراً الإعجاب الصامت الذى يرمقها به ، وكيف وسط الإعجاب بها كانت عيناها تستديران له كأنها لا تطلب القبول والإعجاب إلا عنده ، وحين تنحنى على نراعه لتستد كان عودها الرقيق يتخض بشكل جميل مع قامته الرجولية الفارعة كانت ترمقه بمزيج من الفخر الرقيق .. لم يحدث من قبل أن انطلق زوجان شابان فى درب الزواج للمتكفى للمزهر مثلما حدث لهذين الزوجين .

كان من سوء حظ صاحبي أن جازف بضعفه فى مضاربات كبرى ، ولم يكن قد مر على زواجه أكثر من أشهر حتى انهالت عليه الكوارث وسلسلة من سوء الحظ ، فقد الضيعة ووجد نفسه فى وضع شبه معدوم . لفترة أبقي السر لنفسه وواجه الحياة بقلب محطم وسحنة مكفهرة ، وصارت حياته ألماً لا ينتهى لكن أكثر ما ألمه هو حاجته إلى إبقاء ابنته أمام امرأته . فما كان ليقدّر على أن يؤذيها بهذه الأخبار . إلا أنها استطاعت أن ترى بنظرة الحب الثاقبة أن هناك شيئاً ما على غير ما يرام .. لم تتخدع بمحاولاته السقيمة السخيفة للتظاهر بالسرور .

حاولت جاهدة بكل ما تملك من قدرات أن تعيده لجلادة السعادة ، لكن ما نجحت فيه هو أن غرست السهم أكثر فى روحه . فكلما رأى حبها له كلما تعذب أكثر لفكرة أنه سيجعلها معدمة عما قريب .. إن هى إلا برهة وتختفى هذه البسمة عن هذا الوجه ، وتقضى الأغنية ، وسوف تنقل الهموم هذا القلب السعيد الذى يخفق بخفة فى هذا الصدر ، فيهوى لأسفل مثقلاً بهموم وتعاسة العالم .

ذات مرة جاءنى وحكى لى موقفه فى صوت قاطط . فلما انتهت سألته :

- « هل زوجتك تعرف بهذا .. »

فانفجر فى دموع غاضبة ، وصاح :

- « بالله عليك .. لو كنت تشفق على باى شكل فلا تذكر زوجتى .. إن للتفكير فيها هو الذى يدفعنى للجنون .. »
قلت :

- « ولم لا ؟ سوف تعرف هذا عاجلاً أو آجلاً .. ليس بوسعك إبقاء الأمر سراً .. لربما عرفت الأمر بشكل

أقسى مما لو عرفت منك ، لأن رقة من نحبهم تخفف عنا أعتى الدوامات .. أضف لهذا أنك تحرم نفسك من لطفها ورفقها بك .. بل إنك تهدد الرابطة الوحيدة التى تجمع القلوب ببعضها : علاقة الفكر والعواطف غير المتحفظة .. إذ سرعان ما تدرك هى أن شيئاً يضايقك بينما الحب الحقيقى لا يقبل التحفظات .. إننا نشعر بقلّة القيمة والإهانة عندما لا يسمح لنا بمعرفة أحزان من نحب .. «

— « يا صاحبى .. لكن أية ضربة سوف أوجهها لأحلام مستقبلها ! سوف أهوى بروحها إلى الأرض إذ أخبرها أن زوجها صار متسولاً ! أخبرها أن عليها أن تنسى كل مباحج الحياة الأنيقة ، وكل مسرات المجتمع .. لتغيب معى فى الفقر والنسيان » أخبرها أننى جذبتّها من عالمها الذى كان بوسعها أن تخلق فيه للأبد ناعمة بالتألق والسعادة ، عندما كانت نوراً لكل عين ونبع إعجاب كل قلب .. كيف يمكنها أن تتحمل الفقر ؟ هى التى تربت على الترف .. كيف لها أن تتحمل الإهمال وهى التى كانت معبودة المجتمعات ؟ سوف يحطم هذا قلبها .. «

رأيت أن حزنه بليغ فتركته ينساب .. لأن الأسى يجد راحته فى الكلمات .. فلما انتهت هذه للنوبة وعاد لصمته الكئيب عدت أطرق الموضوع بلطف .. وألحقت عليه فى أن يخبر زوجته بالموقف .. هز رأسه فى حزن لكن بالإيجاب .

— « من الضرورى أن تعرف وبهذا تتخذ الخطوات اللازمة لمواجهة الظروف المتغيرة ، يجب أن تغير أسلوب حياتك .. لا تدع هذا يؤلمك .. أنا أعرف أنك لم تعتمد قط فى سعادتك على المظاهر .. لديك أصدقاء أصدقاء مخلصون لن تتحدر فى نظرهم لو أن منظرهم أقل بهرجة .. ولست بحاجة لقصر كى تنعم بالحياة مع ملهى »

صاح :

— « يمكننى أن أتعلم بالحياة معها ولو فى زريبة مكشوفة ! يمكننى وأنا معها أن أتحمّل الانحدار فى الفقر والتراب .. فليباركها الله »

وبكى وغاب فى حزن رهيف .

أمسكت بيده بحرارة وقلت :

- « صدقتى يا صاحبنى .. سوف تفعل هى ذات الشيء معك .. بل سيكون هذا مصدراً لفخرها وانتصارها .. سوف يستدعى هذا كل الطاقات الكامنة فى طبيعتها .. ولنسوف يسرها أن تعرف أنها تحبك لذاتك .. فى قلب كل امرأة توجد نار ربانية تتوارى فى ضوء الترف .. لكنها تتوهج وتشتعل فى ساعات الضراء .. ما من رجل يعرف حقيقة المرأة التى فى كنفه .. ما من رجل يعرف أى ملاك نبيل هى حتى يجرب معها محن هذا العالم المضطربة .. »

كان هناك شيء فى صدق تعبيرى وبلاغة كلماتى استطاع أن يستولى على مخيلة (ليزلى) . كنت أعرف أى تأثير أحدثته فى نفسه ، فرحت أقنعه بأن يعود لداره ويتحرر من أعباء قلبه المنقل .

يجب أن أعترف برغم ما قلته فإبنى شعرت بعض القلق بصدد النتيجة .. من يستطيع الاعتماد على تماسك إنسان كانت حياته حتى هذه اللحظة جولة بين

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ٤٩

المسرات ؟ ربما تتمرد روحها المرححة على طريق الفقر المهين المظلم الذى صارت تراه فجأة أمامها .. إن الفقر والإفلاس كائنات غريبان على هذه الطبقة التى جاءت منها ..

باختصار لم أستطع أن أقابل (ليزلى) فى الصباح التالى من دون توجس . لقد أفشى لها السر .

- « وكيف تلقت الخبر ؟ »

- « كأنها ملاك ! بدا كأن هذا يريح عقلها ، لأنها طوّقتنى بذراعيها وسألتنى إن كان هذا سبب تعاستى فى الفترة الأخيرة ؟ يا للفنأة المسكينة ! إنها لا تتصور قدر التغيير الذى سوف يطرأ على حياتنا .. لا تعرف شيئاً عن الفقر إلا فى صورة مجردة .. فقط قرأت عنه فى الشعر .. لم تشعر بالحرمان بعد ، ولا تشعر بأنها تفقد مظاهر البهجة .. فقط عندما نجرب الحرمان الحقيقى والإذلال سيكون هذا هو الامتحان الحقيقى .. »

قلت له :

- « لكن بما أنك قمت بالعمل الأصعب فمن الخير أن يعرف العالم كله بالخبر .. قد يكون كشف السر مؤلماً .. لكنها نعاسة واحدة تنتهي سريعاً بدلاً من انتظارها في كل لحظة .. ليس ما يخرج الرجل المفلس هو الفقر ولكن الادعاء . الصراع بين عقل متغطرس وجيب خاو .. فلتملك الشجاعة كي تظهر فقيراً أمام الناس . جرد الفقر من لدغته .. »

وجدت أن (ليزلى) متأهب لهذه النقطة .. فلم يكن يحتفظ بكبرياء زائفة بهذا الصدد ..

بعد أيام زارنى ذات أمسية ، وكان قد باع بيته وسكن فى كوخ بسيط فى الريف يبعد عن المدينة أميالاً . وقد قضى يومه يشحن ما بقى عنده من أثاث على الكوخ . لقد باع كل شيء ما عدا (الهارب) الخاص بزوجته .. لم يستطع بيع هذا لأنه يرتبط بها بشدة وبقصه حبهما .. من أعذب لحظات زواجه تلك اللحظات التى كان يتحنن فيها عليه ويصفى لقلتها العذب ..

كان فى طريقه للكوخ حيث كانت زوجته ترتب كل شيء .. كنت مهتماً بمعرفة تطورات حياته الزوجية ، وقد طلبت أن أصحبه لداره بما أنها كانت ليلة معتدلة الطقس .

كان منهكاً بفعل مجهود النهار وإذ مشى للكوخ غرق فى تأمل كليل .

قال متلهذا :

- « يا (ماري) المسكينة ! »

سألته :

- « ماذا عنها ؟ هل حدث لها شيء ؟ »

قال وهو يلقي على نظرة نافذة الصبر :

- « هل من الهين عليها أن تسجن فى كوخ حقير ؟ أن تكدح فى مسكنها الجديد الوضع زرى الهينة ؟ »

- « وهل أنضجها هذا التغير ؟ »

- « نضج ؟ ليست إلا قطعة من الطوبى والمرح ..
يبدو لى أنها فى أفضل حالاتها المعنوية منذ عرفتها ..
إنها كل الحب والحنان والراحة »

صحت :

- « فتاة جذيرة بالإعجاب .. وأنت تعتبر نفسك مسكينا ..
أنت لم تكن بهذا الثراء من قبل يا صاحبنى .. لم تعرف
من قبل كم أن هذه الفتاة ممتازة بلا حدود .. »

- « أه .. لكن ليت النقاء الذى سيتم فى الكوخ ينتهى ..
عندها سألشعر بالراحة .. لكن هذا أول يوم لها مع المعقاة
الحقيقية .. هذا أول يوم تقضيه فى ترتيب ذلك المتاع
المزرى .. للمرة الأولى تجهد فى العمل المنزلى ،
وللمرة الأولى تجد نفسك فى بيت خال من أى شيء
مبهرج بل من أى شيء ضرورى .. لا بد أنها تجلس
الآن منهكة تفكر فى مستقبل الفقر الذى ستواجهه »

كان كلامه معقولا جدا حتى أنتى لم أستطع
الاعتراض ، ومشينا فى صمت .

اتحرفنا من الطريق الرئيس إلى زقاق ضيق ، تحيط
به الأشجار حتى لتعطيه جواً عاماً من العزلة ورأينا
الكوخ .. كان متواضعا تماماً بالنسبة لما تتخيله
القصائد الرعوية ، لكن برغم هذا كانت له لمحة ريفية
جميلة . لاحظت كذلك عدة أصص من الأزهار وضعت
بشكل أنيق حول الباب والنافذة الزجاجية . وكان هناك
باب صغير ، وإذا دنونا سمعنا صوت موسيقا فأمسك
(ليزلى) بذراعى ، وصمتنا وأصفينا . كان هذا صوت
(مارى) يقضى بطريقة مؤثرة فى بساطتها ، ولطالما
أغرم زوجها بهذه الطريقة .

شعرت بيده ترتجف فى ذراعى .. ثم دخل ليصغى
بشكل أوضح .. أصدرت قعده صوتاً على الأرض المكسوة
بالحصى . ونظر لنا وجه قسيم من النافذة ثم توارى ..

سمعنا صوت خطوات وهرعت (مارى) تلتقانا وقد
ارتنت ثوباً ريفياً أبيض أنيقاً ، وهناك أزهار فى شعرها ..
لم أرها قط بهذه النضارة وتلك السعادة ..

صاحت في :

« واعزيزى (جورج) .. يسعدنى أنك أتيت .. لقد ظللت أرتقبك .. لقد أعددت مائدة تحت شجرة فى الزقاق خلف الكوخ ، وجمعت بعض الشليك (الفراولة) الشهية لأنى أعرف أنك مغرم بها .. ولدينا قشدة ممتازة .. كل شيء رائع هنا .. »

وتأبطت ذراع زوجها ، ونظرت فى وجهه بحب ..

لقد هزم ليزلى المسكين تمامًا ، وضمها لصدره وعجز عن الكلام .. وإن تدافعت الدموع لعينيه . وفيما بعد قال لى إنه برغم أن أموره انتهت فيما بعد فبأنه لم يعيش قط لحظة من السعادة الخالصة مثل هذه .

* * *

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ٤٧

أسطورة سليبي هولو

وجدت هذه القصة بين أوراق المرحوم (ديدريتش نيكروبكر) :

فى قلب واحد من تلك للتجاويف الفسيحة الواقعة على الساحل لشرقى لهندسون ، حيث يتسع لنهر الذى أطلق عليه للملاحون الهولنديون (نيلان زى) ، وحيث كتوا بحصافة يطوون شرائعهم ويطلبون عون القديس (نيكولاس) .

عندما يعبرون تلك البقعة ، توجد مدينة أو مرفأ حضرى يطلق عليه البعض اسم (جرينزبيرج) لكنه يسمى على الأكثر شيوعاً (المدينة القطرانية) . قيل لنا إن هذا الاسم أطلقته قديماً ربات البيوت فى الريف المجاور ، بسبب عادة أزواجهن أن يتسكعوا فى حانة القرية فى أيام السوق .

ليكن الأمر كذلك .. فلما لست متأكداً من هذه المعلومة لكننى أسجلها فحسب توخيًا للدقة والأمانة .

على معافة غير بعيدة من القرية ، ربما على بعد ميلين ، يوجد واد صغير بين التلال العالية ، وهو من أكثر أماكن العالم هدوءاً . هناك جدول صغير يمر عبره

له خربير يكفى لجعك تنص .. فلا تجد صوتاً آخر إلا بقت
نقار الخشب يخرق الصمت من حين لآخر .

لتذكر أننى فى مراهقتى قمت بأول حملة صيد سناجب
فى بستان من أشجار الجوز يظل جانب ذلك الوادى .
كنت قد دخلته عصراً وأثار دهشتى صوت طلقة بندقيتى
التي حطمت الصمت المقدس وظل صوتها وتردد بوساطة
الأصداء الغضبي ..

لو أننى حلمت يوماً بماوى أتوارى فيه عن العالم
وتفاهته . وأحلم بعيداً عن حيلتى المضطربة ، فلا أعرف
موضعاً أفضل من هذا الوادى .

بسبب هذا الهدوء الخامل للمكان ، وطبيعة سكته الذين
ينحدرون من أصول المستوطنين الهولندية الأولى ،
أطلق على هذا المكان المنعزل اسم (سليبي هولو) أى
(الوادى النعسان) . وأطلق على سكاته اسم (صبية
سليبي هولو) * . يبدو أن هناك تأثيراً خفياً خائفاً يسيطر
على كل شيء ويفزو جو المكان . قيل إن المكان مسحور

(*) Hollow لها عدة معن منها الثقب والفراغ والوادى والتجويف
أعتقد أن (الوادى) أقربها للمراد هنا عامة لم أترجم الاسم لأن
الأسماء لا تترجم ..

بفعل طبيب ألماني فى أيام المستعمرة الأولى . قال
آخرون إن زعيماً هندياً أو ساحراً كان يحتفظ بتعاويذه
هنا قبل أن يكتشف السيد (هنريك هدسون) المكان .

المؤكد أن المكان ما زال يحتفظ ببعض القوى
السحرية التي تسيطر على عقول البسطاء ، مما
يجعلهم يمشون فى حالة حلم بقطة مستمر . إنهم
يؤمنون بكل الخوارق ويمرون بالكثير من الرؤى
ويرون مناظر غريبة ويسمعون موسيقا فى الهواء .

إن الجيرة تعج بقصص محلية وبقاع مسكونة
وإيمان بالخرافات .. هنا تطير النيازك وتسقط النجوم
أكثر من أى مكان آخر فى البلاد .. ويبدو أن الكوابيس
تضيق هذه المنطقة كذلك .

إلا أن الروح المسيطرة على هذه البقعة المسحورة
هى شبح بلا رأس يمتطى حصاناً .. يقال إنه شبح
جندي من المرتزقة أطارت قذيفة مدفع رأسه فى
معركة مجهولة أثناء حرب الاستقلال . ويقال إن
الريفين يرونه ينطلق فى الظلام على حصانه كأنما

يحمله جناحا الريح ، وهو لا يظهر فقط في الوادى بل يرتاد الطرق المجاورة ، خاصة قرب كنيسة ليمنت بعيدة عن هنا ..

يزعم بعض الثقة الذين يتحرون الدقة فى مصادر معلوماتهم أن جسد المحارب مدفون فى فناء الكنيسة .. ويزعمون أن الفارس يزور موقع المعركة ليلاً فى بحث أهدى عن رأسه .

ويقال إن السرعة التى يعبر بها الوادى كأنه إعصار منتصف الليل تعود لكونه تأخر ويرغب فى العودة إلى فناء الكنيسة قبل الفجر .

هذا هو ملخص القصة التى ألهمت خيال القصاصين فى بقعة الظلال هذه .. والقصة تحكى جوار كل مدفأة فى البلاد .. حيث يطلقون على الشبح اسم (فارس سليبي هولو مقطوع الرأس) ..

من الملاحظ أن الظواهر البصرية التى أحكى عنها ليست مقصورة على السكان الأصليين ، لكنها تستقر فى لا وعى أى شخص يقيم هناك لفترة من الوقت .

مهما بلغت درجة تنبهم قبل دخول هذه المنطقة الناعسة ، فلا بد أن يعث بهم التأثير السحري مع الوقت ويرون الأحلام والرؤى ..

إننى لأذكر هذه البقعة الآمنة بالخير لأنه فى هذه الوديان الهولندية الهادئة الواقعة على تخوم نيويورك ، ظلت العادات ثابتة وسط طوفان الهجرة الذى لا يكف عن إحداث تغيرات متوالية فى هذا البلد القلق .. إنه يمر بها فلا يلاحظه أحد .

إنهم أقرب إلى بقاع الماء الهادئ المجاورة لتيار سريع .. وبرغم أن أعواماً عديدة قد مرت على منذ مشيت فى ظلال (سليبي هولو) الناعسة ، فإتنى لأتساءل عما إذا كنت سارى تلك الأشجار ونفس الأسر الغافية فى ظلالها .

فى هذا الموضع من الطبيعة وفى حقبة بعيدة من تاريخ أمريكا - حوالى ثلاثين عاماً - عاش رجل فاضل اسمه (إيشبود كرين) ، عاش لفترة مؤقتة فى (سليبي هولو) بغرض تعليم أطفال المنطقة . كان من سكان

(كونكتيكت) الأصليين ، وهي مدينة طالما أمدت الاتحاد الأمريكي برواد الفكر كما أمدته برواد الغابات .. إنها تصدر كل عام أبناءها من حطاي الحدود والمعلمين .

وكان لقب (كرين) لا يناسب شخصه .. كان فارغ الطول لكنه نحيل ضيق الكتفين وله يدان تتدليان أميالاً من كميته حتى تصلحاً جاروفين .. وكنت تشعر أن مظهره لا يتفق مع بعضه . كان رأسه صغيراً مسطحاً وله أنثان عملاقان وعينان خضراوان زجاجيتان ، وله أنف غريب حتى ليبدو كأنه ذلك الديك الذي يقف على مغزل ليحدد اتجاه الرياح . إن تراه يمشى جوار الجبل في يوم عاصف وثيابه تتطاير من خلفه ، فربما حسبته مجاعة هبطت على الأرض أو فزاعة فرت من حقل قمح .

كانت مدرسته بنائية وطينية بها غرفة واحدة كبيرة من ألواح الخشب ، وقد غطيت النوافذ بأوراق من الكتب القديمة . وكان يغلقها في أوقات العطلة بطريقة تتيح للنص أن يدخل بسهولة لكنه سيجد عسراً في الفرار .

وهي فكرة غريبة خطرت للمهندس المعماري (يوشنت فان هلوتن) ..

كانت المدرسة تقع في منطقة مقفرة لكنها جميلة ، أسفل تل تكسوه الغابات وثمة نهر يجري قربها وشجرة بتولا هائلة الحجم إلى جانبها . من هنا يمكن أن تسمع صوت غمغمة التلاميذ وهم يطالعون كتبهم في يوم صيف خمول ، فكأنه أزيز النحل في خلية .

يقاطع هذا الصوت من حين لآخر صوت السيد الأمر بلهجة تهديد أو أمر .. أو صوت عصاه المرعب وهو يلاحق أحد التلاميذ المتسكعين على طريق المعرفة المزهر . الحقيقة أنه كان رجلاً حى الضمير وكان يحمل في ذهنه دوماً الحكمة الذهبية : « تغل عن العصا يفسد الطفل » .. وبالتأكيد لم يفسد أى واحد من تلاميذه .

على كل حال لم أتصوره قط كواحد من نظار المدارس القساة الذين يجدون سعادة فيما يقومون به ، بل على العكس كان يطبق العدالة بتميز ويرفع العباء

عن ظهور الضعفاء من طلابه ، ويضعه على الأقوياء منهم . وكان يتبع عقابه دوماً بأن يطمئن الصبى المراهق بأنه سيتذكر هذا العقاب ويشكره عليه .

وحينما كانت ساعات المدرسة تنتهى ، كان هو رفيق لعب وصاحب الأولاد الأكبر سناً .. وفى عصر الإجازة كان يوصل الصغار سناً لبيوتهم خاصة من لهم أخوات جميلات أو لهم أمهات طيبات يحتفظن ببعض ما لذ وطاب .

فى الحقيقة كان عليه أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع تلاميذه ، لأن دخل المدرسة كان قليلاً ، ولا يكاد يفى باحتياجاته اليومية من الخبز .. فقد كان شرها وبرغم نحوله كانت له قدرة ثعبان (الأساكوندا) على البلع . وطبقاً لعادة الريف فى هذه الأصقاع كان يدعى للطعام فى بيوت الصبية الذين يعلمهم . بل كان يدعى للإقامة أحياناً لمدة أسبوع ، فكان يذهب هناك وقد جمع كل ممتلكاته الدنيوية فى منديل قطنى .

لم يكن هذا يسبب عبئاً كبيراً على جيوب الريفين البسطاء حتى لو اعتبروا مصاريف المدرسة مرهقة والناظر عالة عليهم ، فقد كان يعرف كيف يكون مفيداً ومقبولاً .

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ٥٥

كان يساعد الفلاحين فى أعمال الفلاحة السهلة . ويكون معهم القش ويصلح الأسوار ويأخذ الخيول للماء ، ويقود الأبقار من مراعيها ، ويقطع الأخشاب للمدفنة .

كان كذلك يزيح جانباً كل الكبرياء الذى يتعامل به فى ممنكته الصغيرة .. المدرسة .. ويصير لطيفاً بطريقة مذهشة . كان يكسب رضا الأمهات عن طريق تدليل أطفالهن ، وخصوصاً أصغرهم .

وكما يفعل الأسد مع الحمل ، كان يضع صبياً على حجره أو بهز مهد رضيع بقدمه عدة ساعات متواصلة . بالإضافة لمواهبه الأخرى كان يقود الصبية أثناء غناء المزامير فينال شلنات كثيرة برفقة .

وكان يحب أيام الأحاد أن يجلس أمام الكنيسة مع فريق من الصبية المختارين ، حيث ينجح تماماً فى أن ينتزع سقف المجد من خورى الكنيسة . وكان صوته هو الأعلى أثناء الغناء ، وكنت تسمع تهدجه المميز ربما على مسافة نصف ميل فى صباح أحد هادئ ..

هكذا بمزيج من المراوغة والتحايل استطاع هذا
المربى الفاضل أن يعيش ..

كان الناظر ذا قيمة ما بالنسبة للفتيات فى الجيرة ،
باعتباره رجلاً مهذباً ذا ذائقة عالية ويختلف عن عشاق
الريف الخشنين ، وكانوا يعتبرونه الشخص الوحيد
الذى يلى خورى الكنيسة فى العلم .

لهذا كان ظهوره يسبب اضطراباً على موائد الشاي
فى المزارع .. ومن أجله كتبت توضع صحون إضافية من
الحلوى والكعك أو ظهور براد شاي فضى بالصدفة .

لهذا كان رجلنا ينعم بابتسامات كل أنسات الريف .
ولهذا كان يظهر بينهم فى ساحة الكنيسة ويجمع لهم
العنب من الكروم البرية التى تلتف حول الأشجار ،
ويستمع عن ظهر قلب كل المكتوب على شواهد القبور
لتسليتهم . أو يمشى الهوينى مع سرب منهم على
ضفاف البركة بينما تمشى الخجولات منهم فى وداعة
فى مؤخرة الموكب ، ويحسدن من تفوقهن ذكاء
وجرأة ..

كانت حياته مليئة بالحركة من مكان لآخر لذا كان
مجلة متنقلة تحوى كنزاً من الشلعات والقييل والقلل من
بيت لبيت .. ولهذا كان مرآة يبعث الرضا فى النفوس .
وكانت للنسوة يعتبرنه رجلاً واسع العلم خبر العلم ، وكان
يفهم كتاب (كوتون مائر) * المدعو (تاريخ السحر فى
نيو إنجلند) الذى كان يؤمن بأكثر ما كتب فيه .

فى الواقع كان خليطاً من السذاجة والخبث .. وكانت
له شهية مذهلة لكل ما هو غير عادى وقدرة عجيبة
على هضمه ، وقد نمت الموهبتان نتيجة حياته فى هذه
البقعة المسحورة . لم تكن هناك قصة غريبة أكثر من
اللام على ملكة تصديقه .. وكان مما يسره بعد انتهاء
ساعات الدرس أن يستلقى على العشب المحيط ببنابة
المدرسة ويدرس بدقة حكايات (مائر) القديمة المخيفة
حتى يجعل الغسق الصفحة مجرد ضباب أمام عينيه .
ثم يخرق المستنقع والغابة قاصداً بيت الفلاح الذى
يؤويه ، بينما يداعب خياله كل صوت من الطبيعة فى
هذه الساعة المسحورة . صيحة ضفدع الأشجار ونزير

(*) من خبراء صيد السحرات المعروفين وقد قُتل عدداً كبيراً منهم ،
كما أن له كتباً شهيرة فى الموضوع .

العاصفة ونعيق البومة .. وصوت أجنحة للطيور الخلفة
في أعشاشها .. ونباب النار الذي يضيء بقوة حيث يوجد
ظلام ، كل هذا كان يثير توتره .. وعندما تأتي خنفسة
حمقاء محلقة نحو وجهه فإن المسكين كان يوشك على
الاستسلام معتقداً أن ساحرة تضع علامتها عليه .

كانت طريقته الوحيدة للشعور بالحماية هي أن يفضي
مزامير داود . فكان أناس القرية الطيبون يرتجفون
وهم جالسون على عتبات بيوتهم إذ يسمعون يترنم
بصوت أخف عبر الهضبة البعيدة .

من المصادر الأخرى لمتعته المفزعة كان أن يمضي
ليالي الشتاء الطويلة مع العجائز الهولنديات إذ يجلسن
يطرزن جوار النار ، مع تفاح يشوى على المدفأة .
ويصغى لقصصهن عن الأشباح والعفاريت . عن البيوت
المسكونة والبحيرات المسكونة والجداول المسكونة
والغابات المسكونة .. وبخاصة قصص الفرسبان
مقطوعى الرءوس أو (مرتزق هولو الراكض) كما كن
يسمينه .

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ٥٩

بالمثل كان يسعدون بقصصه عن الساحرات
والعلامات المقتقة والأصوات التي عرفها أيام (كونكتيكت)
الأولى . ويخبرهن بتفاصيل عن النيازك الهاوية
وبالحقيقة المفجعة أن العالم يدور حول نفسه ، وأنهن
يقضين نصف حياتهن مقلوبات لأسفل !

على أنه مهما بلغت متعة هذه الاجتماعات فإن هذه المهمة
كانت تتبدد أثناء رحلة العودة لبيته في الظلام .. كم من
أشباح مخيفة كانت تعترض طريقه وسط الضوء الشبحي
الغامض لليل الشتاء ! كم من ضوء غريب جاء من نافذة
لا يعرف مكانها ! كم من مرة أثار هلعه جذع شجرة كساها
الثلج اعترض طريقه كأنه عفرية ملتف في ملاءة ! لكم
ارتجف ذعراً من صوت خطواته على قشرة الجليد !

يخشى النظر إلى ما وراء كتفه حتى لا يرى كينونة
غريبة تدنو منه ..

ولكم أثار هلعه صوت الريح من خلفه معتقداً أن هذا
هو (مرتزق هولو الراكض) في غزوة من غزواته
الليالية !

كل هذه كانت مخاوف ليلية .. أشباح عقل يمشى فى الظلام .. وبرغم أنه رأى الكثير من الأشباح فى حياته ورأى الشيطان فى أكثر من شكل ، إلا أن ضوء النهار كان ينهى هذه الشرور جميعاً .. وكان يوسعه أن ينعم بحياته برغم الشيطان وكل مخلوقاته ، لو لم يعترض طريقه كائن أشد خطراً على الفاتين من الأشباح والعمالقة وكل جنس الساحرات .. هذا الكائن كان امرأة ..

بين طالبات الموسيقى اللاتي يحتشدن ليلة الأحد كل أسبوع كى يتلقين تعليمات إتشاد المزامير ، كانت (كاترينا فان تاسل) .. الابنة الوحيدة لمزارع هولندي ثرى . كانت فى الثامنة عشرة نضرة متوردة الخدين كأنها خوخة فى بستان أبيها .

كانت شهرتها واسعة ليس لحسنها فقط بل لثروتها ، فقد كانت غنوجا فى ثوبها الذى يجمع بين الطراز العتيق والموضة الحديثة ، وكانت تترين بذهب خالص جلبته جدة جدتها من (سار) ..

كان (إيشبود كرين) يملك قلباً ساذجاً مرهفاً نحو الجنس الآخر ، فلا عجب أن الحسناء رافت له على الفور .. خاصة بعد ما زار بيت أبيها ..

كان (بالتوس فان تاسل) العجوز نموذجاً لفلاح طلق لطيف الطباع راض عن الدنيا ، لكنه لم يرسل عينيه أو عقله قط خارج حدود مزرعته .

كان راضياً عن ثروته لكنه ليس فخوراً بها .. وكان حصنه يقع على ضفاف نهر (هدسون) فى واحد من تلك الأماكن الخضراء الظليلة التى يولع بها الفلاحون الهولنديون . كانت شجرة دردار ترسل ظلالها فوق البيت ، وعلى مستوى منخفض منه نافورة تتصاعد منها المياه العذبة ، وجوار البيت كان مخزن حبوب يمكنه أن يفي بحاجات كنيسة كاملة .. وقد بدا أن كل باب ونافذة فيه يوشك على الانفجار بكنوز المزرعة . وكانت آلة الدريس تعمل بلا انقطاع من الصباح للمساء ..

من حين لآخر ترى صفوفاً من الحمام ومن الإوز الأبيض كالثلج يسبح فى بركة قريبة ، والديكة الرومية تجول عبر فناء المزرعة . بينما يتململ دجاج (غينيا) كأنه حشد من زوجات ملولات .. وعلى باب الجرن

يقف ديك عملاق بتلك الوقفة التى هى مزيج من زوج ومحارب وسيد مهذب يؤذن فى غرور ورضا عن النفس .. ثم ينادى زوجاته وأطفاله فى كرم نفس كى يستمتعوا باللحمة التى اكتشفها .

كان لعاب المربى الفاضل يسيل وهو ينظر لكل هذا الثراء ، وراح يتخيل كل خنزير يراه مشوياً وقد امتلأت بطنه بالسجق ، ووضعت تفاحة فى فمه ، والحمام قد أخذ للنوم وغطى بالخبز ، والبط يتزاوج مستريحاً فى الأطباق وسط الكثير من عصيدة البصل ..

كان (إشبود كرين) يتخيل هذا كله ، وكان يقلب عينيه الخضراوين فى المروج الثرية وحقول القمح والشعير وبساتين الفاكهة التى تحيط ببيت (فان تاسل) .. وفى الوقت ذاته يرتجف قلبه حنيناً للآنسة التى سترث كل هذا . يحلم بتحويل كل هذه الثروات إلى مال يتم استثماره فى الأراضى البرية .. وتخيل عربة تجلس عليها كاترينا مع أطفالها بينما يتقدم هو الراكب بجواد مطهم قاصداً كنتكى أو تنيسى أو يعلم الله أين !

حين دخل البيت رآه مترفاً مفروشا على طريقة المستوطنين الهولنديين الأوائل .. كل شيء كان ثرياً يعد بإمكانات هائلة .. لكن سلامه النفسى تلاشى ولم يعد يفكر إلا فى السبيل للفوز بآبنة (فان تاسل) التى لا نظير لها .. لكن الصعاب التى كانت فى طريقه كانت تفوق تلك التى واجهت فارس الأساطير الذى لم تكن لديه مشاكل إلا مواجهة العملاقة والسحرة والتنانين وغيرهم من الخصوم سهلى الهزيمة ، وكان عليه اجتياز بوابات من الحديد والنحاس حتى يصل للقلعة ، حيث سجن حبيبته .. كل هذا حققه بالسهولة التى يقطع بها المرء كعكة رأس السنة .. وبالطبع أعطته الحسنة موافقتها كشىء مفروغ منه . بالنسبة لـ (إشبود) كان عليه أن يصل لحسناته عبر غابة من الدلال والنزوات هى دائماً غاية فى الصعوبة والتعقيد ، وعليه أن يواجه منافسين حقيقيين من لحم ودم . كل المعجبين الذين يحاولون اقتحام قلبها ويراقبون بعضهم البعض يحذر .. ويمكن أن يتحدثوا فى أية لحظة إذا ظهر منافس جديد .

بين هؤلاء كان أكثرهم شناعة واحد يدعى (إبراهيم) أو حسب الاختصار الهولندي (بروم فان برون) .. بطل الريف الذي تدوى أخبار قوته وبطولاته .. كان عريض الكتفين مرن الجسد له شعر أسود قصير مجعد ، وله مظهر ضاحك متعجرف جعل الناس يطلقون عليه (بروم بونز) .. كان شهيراً ببراعته في الفروسية يسيطر على الحصان كأنه من التتار .. كان الرابع في كل سباق خيول وكل مصارعة دبكة ، وهو الفائز في كل مشاجرة بقوته الجسدية . كان متأهباً في أي وقت للمشاجرة أو حفلات السمر لكنه لم يكن سيئ النية ، وكان ثمة نوع من الظرف في خشونته . معه ثلاثة أو أربعة من الأكباع الذين يتخذونه نمونجا لهم .. ويجوبون الريف بحثاً عن أية فرصة للشجار أو للمرح .

وفي البرد كنت تميزه بقلنسوة صوفية يتدلى منها ذيل ثعلب يراها الناس من بعد . وكان يوسعك أن تسمع حوافر خيولهم خارج المزرعة ليلاً وهم يتصايحون كأنهم ركب من (الدون كيشوتات) .. فكانت القلنسوة

روايات مصرية الجيب .. روايات عالمية ٦٥

يصحون من نومهم وينظرون حتى يخفت الضجيج فيقتلن :

- « آه .. هذا (بروم بونز) وعصابته ! »

وكان الجيران ينظرون له بمزيج من الرهبة والإعجاب وحسن النية . وعندما تحدث أية عركة في الجوار كانوا يهزون الرعوس ويؤكدون أن (بروم بونز) طرف فيها .

اختص هذا الرجل (كثيراً) نفرة بتولده الأخرق اللفظ ، وبرغم أن ملاطفته كانت أقرب إلى ملاطفات دب ، لكن كان يقدر همسا أنها لم تحل أماله تماماً .

بانتطع كنت ملاطفته وعروضه إشارات للمنافسين كي يتراجعوا . ومع رأى الناس حصانه مسرجاً إلى سباح مزرعة (من ناسر) في ليلة أحد ، أدركوا بما لا يقبل شك أن سيده يطرح الفساة العرام .. فأتصرف الحاسمون في قسوط وانطقوا للحرب في جبهات أخرى .

كان هذا هو الخصم الرهيب الذى يجب على (إيشابود) أن يواجهه .. وبالنظر إلى الموقف نجد أن رجلاً أشجع منه كان سيجبن من المنافسة ، ورجلاً أعقل منه كان سيينس .. لكنه كان بطبعه خليطاً من المرونة والمثابرة وكان قادراً على الانحناء لكنه لا ينكسر أبداً . ينحنى مع الضغط لكن إذا يزول هذا يستقيم ويشمخ برأسه .

كان من الجنون أن يقف فى الميدان بوضوح أمام منافسه ، لهذا راح يدبر خططه فى هدوء وخلاسة .. وبصفته مدرس غناء راح يزور المزرعة بانتظام ، وإن لم يشكل له الأبوان مشكلة لأن (فان تاسل) كان رجلاً بسيطاً يحب ابنته ربما أكثر من غنيونه ، وكان يسمح لابنته بحريتها . وكان لدى زوجته أعباء كافية فى أعمال البيت والعناية بالبنات ، وكنت تقول إن الإوز والدجاج كانتات حمقاء لا بد من مراقبتها ، بينما الفتيات كانتات عاقلات يمكنها العناية بنفسها . لهذا كان (إيشابود) يأخذ راحته عند شجرة الدردار أو يمشى مع الفتاة فى وقت الغسق تلك الساعة المفضلة لدى العشاق .

أعترف أنني لا أعرف كيف يفوزون بقلوب النساء ، فطائما اعتبرت هذه الأمور ألغازاً جديدة بالإعجاب . يبدو أن لكل امرأة باباً أو نقطة ضعف ، وبعضهن لهن ألف طريق .. من الممتع دائماً أن تصل إلى الطراز الأول لكن المثير للإعجاب فعلاً أن تحتفظ بالطراز الثتى ، لأن الرجل يجد عليه وقتها أن يدافع عن كل باب وكل نافذة فى قلعه الحصينة . إن الرجل الذى يسيطر على قلب امرأة لعوب فهو بطل بمعنى الكلمة .

كان (بروم بونز) يملك نوعاً من الفروسية فى طباعه لذا كان يسره أن يحيل الأمور حرباً ، ويدخل معركة الفول بالحسنا على طريقة الفرسان البسيطة .. القتال ، لكن (إيشابود) كان يدرك قوة منافسه الهائلة بحيث لا يدخل مواجهة معه .. لم يترك هذا من سبيل للمواجهة لدى (بروم) إلا عن طريق المقالب الصبيانية السخيفة التى يمارسها مع عصابته . سدوا مدخنة المدرسة لتملاً المكان بالدخان .. اقتحموا المدرسة ليلاً وقتلوا كل شيء .. حتى حسب المدرس المسكين أن كل ساحرات البلاد اجتمعن هنا ليلاً .

الأسوأ أن (بروم) سخر من خصمه أمام حسناته ،
وعلم كلبه أن ينقض عليه أثناء درس إتشاد المزامير
وفي عصر خريف حميل ، جنس (إيشابود) متأملاً
في مقعده المعتاد وفي يده مقرعة . رمز قوته
الاستثنائية الرعب الأرضي للخطاة وأمامه
الممنوعات التي صادف مثل تفاحة قضم نصفها
وبنادق فلين ودوامت .. يبدو أنه قام بمهمة تظهيرية
لأن الصمت كان سائداً في الصف . فجأة قطع هذا
الهدوء دخول زحى صغير يلبس قبة مهلهلة ، وكان
يحمل دعوة لحضور حفل هذه الليلة في دار (فان
تاسل) سنده أياها ثم انطلق يجرى مبتعداً وكله فخر
بأهميته .

ساد الصخب والهرج الصف الهادئ .. عكف الكل
على إنهاء دروسه بسرعة وطارث الكتب بدلاً من أن
توضع على الأرفف وانقلبت المناضد وزجاجات الحبر
وأطلق سراح الطلبة قبل الموعد بساعة . فخرجوا
يتصايحون مهئين فرحين بتحررهم المبكر .

قضى إيشابود نصف ساعة إضافية في الحمام ينفض
أفضل سرة عند الوحيدة في الواقع ويتجمل في مرآة
مهشمة معلقة في بداية المدرسة أراد الظهور أمام
فتاته كفارس حقيقي . لذا استعار حصاناً من فلاح
هولندي عجوز غضوب اسمه (هاتز فان ريبير)
هكذا انطلق في عظمة كآته فارس يبحث عن
المفمرات اجد على أن أصف متاع هذا الفارس
العظيم لذا أقول إن الحصان الذي كان يركبه كان
حصان محراث مكسور الساق هزيلاً له رأس يشبه
المنطرفة وله عين فقدت قرنيتهما أما الأخرى فكان
فيها بريق الشياطين وكان يحمل اسم (البارود)
فلا بد أن تاريخه كان نارياً . لقد كان المفضل لدى
سيده (فان ريبير) الذي كان سين الطبع في الركوب ،
فلا بد أنه بث بعض هذه الروح في الحيوان لقد كان
فيه من روح الشيطان أكثر من أي حصان آخر أصغر
متناً في الريف .

كان (إيشابود) مناسباً لهذا الحصان .. كان مرفقاه
بيرزان كأنهما نطاطا غيط .. وكان يلوح بالسوط كأنه

صولجان ، وإذ ركض الحصان بدأ كأن نراعيه أقرب لرفرفة الجناحين . بينما عباءة (إيشابود) تطير وراءه حتى تبلغ ذيل الحصان .. كان هذا هو المنظر الذي غادر به مزرعة (فان ريبير) وهو منظر قلما تراه في ضوء النهار .

كان يوماً جميلاً كما قلنا ، وكانت الحقول خليطاً من اللون الذهبي والأخضر الذي اعتدنا أن نربطه بمعنى الوفرة .. جعل هذا المشهد (إيشابود) يحلم بالزلاوية المليئة بالزبد والمدهونة بالصل من يد (كاترينا فان تاسل) الصغيرة ذات الغمازات .

وصل إلى المزرعة في المساء ، وقد ازدادت بالأزهر على طريقة الفلاحين المسنين في التفخر ، وكلن عدد من الريفيين هناك بأنافتهم الريفية المبهجة . لكن (بروم بونز) كان ملك الحفل .. فقد جاء للحفل على جواده المطعم الشرس (دير ديفل) وهو مخلوق يشبهه مفعم بالهمة وسوء الطبع ، فلا يجسر أحد على التعامل معه سواه . كان مولفاً بالخيل الخبيثة التي تجعل الراكب

لا يطمئن على عنقه ، لأنه كان يعتبر الخيول المطيعة غير جديرة بالفرسان .

لن أصف المباحج التي رآها بطلنا عندما دخل إلى منزل (فان تاسل) .. كل الحساوات الممتلئات بثيابهن الأحمر والبيض ، والشاي الذي يقدم مع حلوى شهية لا تعرف أسرارها إلا ربات البيوت الهولنديات . كعك زنجبيل وكعك بالصل وكعك بالبندق ثم فطير التفاح وفطير الخوخ ، وشرائح اللحم المدخن دك من السمك والدجاج المشوى . دك من الوعاء الكبير الذي يرسل لبحرته الودود في هواء القاعة ..

أحتاج إلى كثير من الوقت والأنفاس كي أصف هذه المأدبة كما تستحق ، بينما أنا متلهف على استكمال قصتي . من حسن حظ (إيشابود) أنه لم يكن ضيق الوقت مثل راوى قصته ، لذا أعطى كل طبق حقه .

كان شخصاً بسيطاً حسن الطباع ممن يتسع قلبهم عندما يأكلون الطعام الطيب ، مثلما يحدث لآخرين عندما يعاقرون الشراب . لم يستطع أن يمنع نفسه

أثناء الأكل من النظر حوله ، وراح يفكر فى احتمال أن يصير يوماً ما هو سيد كل هذا المشهد المترف المبهرج .

وراح يفكر فى اليوم الذى يترك فيه مبنى المدرسة العتيق ، ويتخلص من (فان رير) وكل البخلاء الذين أحسنوا إليه ويطرد كل معلم يجروء على أن يناديه بـ (زميلى) !

كان (فان تاسل) يمشى بين ضيوفه بوجه جعله الرضا والمرح كأنه البدر وكان يكتفى بهز رأسه وضربة على الكتف ثم يدعوهم لأن (يخدموا أنفسهم ويأخذوا راحتهم) .

ثم تعانى صوت الموسيقى من الصالة تدعو الموجودين لرقص . وكان العارف زنجياً أشيب ظل قاتل أوركسترا بحيرة سصف قرن انطلق (إيشابود) يرفس وينفوح فى براعة حتى صار محط إعجاب بسوج جميعاً أولئك الذين جءوا من انقرى المجاورة . وشكروا هرم من انوجوه السود تنظر باتبهار للمشهد

روايت مصرية للجيب .. روايت عالمية ٧٣

من النوافذ ، مظهرين صفوفاً من الأسنان البيض اللامعة من أذن لأذن كيف لجلاد الصبية هذا أن يكون أقل مرحاً بينما فانتته ترقص معه ؟ وقد جلس (بروم) فى ركن وحيداً يشتعل غيرة وكمداً .

ثم إن (إيشابود) وقد انتهى الرقص جلس مع الرجال الأكبر سناً الذين جنسوا يدخلون ويتكلمون عن الحرب .. فقد كانت هذه المنطقة من أغنى المناطق وبالتالي كانت مأوى لكل الفارين من الحرب ورعاة البقر . وكانت ذكريات الحرب قد ابتعدت بما يسمح لكل واحد منهم أن يضيف من خيالاته الخاصة على قصته ويعيد سردها بعد أن يصير بطلاً .

لكن هذه القصص لم تكن تعد شيئاً جوار قصص الأشباح التالية . إن الأشباح لا تجد فرصة طيبة أو تشجيعاً فى الريف ، لأنه ما إن ينزل الميت إلى قبره ويقرر شبحه الخروج من القبر ليخيف الأحياء حتى يجد أن من يعرفونه قد رحلوا لأرض أخرى .. لهذا لا يجد شخصاً يعرفه . لكن قصص الأشباح تزدهر فى هذه الأراضى الهولندية حيث لا يرتحل الدس إلا نادراً

إلا أن أهم الأسباب كان قرب المنطقة من (سليبي هولو) .. ثمة شيء معد في هذه البقعة ينقث الأحلام والأوهام في الناس . كان هناك كثيرون من (سليبي هولو) في هذا الحقل لذا راحوا يحكون عن أصوات النحيب التي تدوى حول الشجرة العتيقة .. البعض تكلم عن المرأة ذات الثوب الأبيض التي تسكن وادياً صغيراً منعزلاً في (صخرة الغراب) . وهي تبكي في وقت العواصف الثلجية لأنها ماتت وسط الجلد .

إلا أن أكثر القصص دار حول الفارس مقطوع الرأس .. والذي يسمونه يركض بجواده ليلاً جوار شواهد القبور في الكنيسة . وقد حكى عنه (بروفر) العجوز الذي لم يكن يؤمن بالأسباح ، لكنه قابل الفارس عائداً من (سليبي هولو) ، وقد راح يطارده عبر الغابات والمستنقعات ، حتى بلغ الجسر .. هنا استحال الفارس مقطوع الرأس هيكلًا عظيمًا وألقى بـ (بروفر) العجوز في البركة ثم طار فوق قمم الأشجار محدثاً صوت رعد .

كانت لدى (بروم بونز) قصة أكثر غرابة ثلاث مرات .. لقد قابل الفارس في منتصف الليل ولما كان

يعتبره مهرجا فقد راح يتسابق معه ، لكن الفارس اختفى بحصانه كأنه نار انطفأت .

حكيت هذه القصص بتلك النغمة الخفيفة الخافتة التي يتكلم بها الرجال في الظلام ، مع سحنات المستمعين التي تتبدى للحظة كلما جذب أحدهم أنفاس غليونه .. هذا كله أثر على (إيشابود) الذي حكى لهم مقتطفات من مؤلفه الذي لا يقدر بمال (ماتر) .

انتهى المرح فبدأ الفلاحون يجمعون عائلاتهم في العربات ، ولفترة كنت تسمعهم وهم يبتعدون عبر التلال البعيدة .. صوت الفتيات يضحكن مع حوافر الخيل يخفت ويخفت حتى يغيب ..

تأخر (إيشابود) وحده كعادة عشاق الريف .. كي يتبادل كلمات هامسة مع مليكته ، موقناً أنه الآن على الطريق الصحيح للنجاح .

لا أستطيع أن أقول بصراحة ما قيل في هذه المحادثة لأنني لا أعرف .. فقط أخشى أن شيئاً خطأ قد حدث ، لكنه رحل ولم يمض وقتاً طويلاً ..

يا لهؤلاء النسوة ! هل كانت الفتاة تتلاعب به
ممارسة حيلها النعوب ؟ هل كان تطفها معه مجرد
وسيلة لتوصل إلى قلب منافسه ؟ الله وحده يعلم ..
ليس أنا !

كل ما أعرفه أن (إيشابود) رحل دون أن ينظر يميناً
أو يساراً إلى الثراء الذي كان يحلم به . اتجه للإسطبل
وببضع ركلات من القنب أيقظ جواده من حيث كان ينام
يحلم بجبال من القمح ووديان من البرسيم

تلك كانت أكثر ساعات الليل المسحورة عندما عاد
(إيشابود) لبيته عابراً التلال التي ترتفع فوق (مدينة
القطران) والتي عبرها سعيداً عصر اليوم . كانت
ساعة كنيية مثله ..

في هذه الساعة كان بوسعه سماع نباح الكلاب من
الضفة الأخرى لنهر (هدسون) . لكنه خافت جداً
يخبرك فقط كم هو بعيد عن هذا الرفيق المخلص
للإنسان من حين لآخر يصحو غراب صدفة ويصيح
لكنه كان كصوت الحلم في أذنيه . ثم تكن قربه علامات

عنى الحياة . فيما عدا صوت بطط غيط أو ضفدع من
مستنقع قريب .

الآن جاءته من قصص الأشباح التي سمعها مساء
لنجاحه في ذهنه . اردد كثير حكمة وبدأ حان النجوم
تغوص في السحاب . لم يشعر قط بالوحدة لهذا الحد
دعك من أنه . قترب من المكان الذي دارت فيه أكثر
قصص الأشباح . فهنا شجرة تيوليب عائلية تبدو
كعلامة . كانت غصونها عليقة حتى لتصلح جذوعاً
لأشجار أخرى . وكانت هناك قصة عن (أنريه) التمس
الذي استقر عند شاطئ عليها . فلاحون اسم (شجرة
ميجور أنريه) . ومن الفلاحون يرمقونها بمزيج من
تقدير والاحترام . من ناحية شفقة على ما حدث
نضجبتها ذي الحظ العاشر . ومن ناحية أخرى بسبب
القصص الرهيبة المرتبطة بها .

بذلك (إيشابود) من هذه الشجرة المحيطة . بدأ
يصفر . وخيل له أن هناك من يجيب عن هذا الصفيح .
وإذا دعا أكثر خيل له أن شيئاً أبيض يتدلى من بين
الفصوص . توقف وكف عن الصفيح .. لما دنا أكثر رأى
أن هذا مكان صريه البرق فتعري الحشب الأبيض .

فجأة سمع أننا فاصطكت أسنانه .. لكن لم يكن هذا سوى غصن يحكك بآخر إذ يؤرجحهما التسيم .. عبر الشجرة في سلام لكن مخاوف أخرى كانت تنتظره .

على بعد مائتى ياردة كان جدول صغير يخترق الطريق عابراً إلى مجرى صغير يطلقون عليه اسم (مستنقع وبلى) .. وقد وضعت بضعة ألواح خشبية لتكون جسراً فوق هذا الجدول .. على جانب الطريق حيث يدخل الجدول المستنقع توجد أشجار بلوط تلقى ظلالاً موحشة .. فى هذا المكان بالضبط اعتقل (أندريه) التمس .. وفى هذه الظلال توارى رجال الحرس البريطانى الذين اعتقلوه . منذ ذلك الوقت اعتبر هذا الجدول مسكوناً وكان التلاميذ يخافون عبوره بعد حلول الظلام .

إذ مر بالجدول اتخذ قراره وركل الحصان فى ضلوعه ، واندفع لعبور الجدول لكن الحيوان المشاغب بدلاً من الاندفاع للأمام تحرك جانباً وجرى نحو السور .

ركله (إيشابود) نافذ الصبر بقدمه الأخرى لكن هذا كان بلا جدوى .. لقد اندفع الجواد إلى جانب الطريق وسط غلبة كثيفة من الأحراش .. راح الناظر يوجه الضربات لضلوع (البارود) العجوز الذى اندفع للأمام ، ثم توقف عند الجسر فجأة حتى كاد يوقع راكبه على رأسه .

هنا سمعت أننا (إيشابود) للحساسات صوتاً على جانب الجسر .. وفى ظل الأيكة رأى شينا عملاقاً مشوهاً بارزاً .. لم يتحرك هذا الشيء لكنه بدا متربصاً فى الظلام .. كأنه وحش عملاق يوشك على الانقضاض ..

انتصب شعر المعظم رعباً .. ماذا يفعل ؟ هل يستدير ويهرب ؟ تأخر الوقت .. ثم ما فرصته فى النجاة من شبح ؟ عقرت يمكنه ركوب جناحى الريح ..

استجمع شجاعته وصاح :

« من أنت ؟ »

لم يتلق إجابة . أعاد السؤال بصوت خائف ، لكن لا إجابة .

اغصص عينه واتخذ يشد أحد المزامير بحماس
لا شعوري . هنا تحرك ذلك الحبل المخيف . ووثب إلى
نصف الطريق .

وبرغم أن النظمة كانت حائكة . إلا أنه يمكن ادراك
شكل هذا المجهول بدا فريث عملاق يركب على صهوة
حصان أسود ضخم لم يد عذمة تدل على العدوانية
ولا على الصداقة فقط ظل يمشي على جانب الطريق
جوار (بارود) الذي بدأ ينصرف على زعره

كان إيشابود يفكر في مفكرة (بروم بونز) مع
المرتزق الراكض لذا حاول أن يحث جموده على
الابتعاد . لكن الغريب زاد من سرعة حصاته ليلحقه ..
أبطأ إيشابود سرعة حصاته كي يبقى في الحلف ، ففعل
الأخر نفس الشيء بدأ قلبه يبيض بغف وحاول أن
يستعيد المزامير التي كان يشدها لكن لسانه الجاف
التصق بسقف فمه .

كان هناك شيء مخيف في صمت هذا الرفيق العنيد
سرعان ما اتضح الأمر لقد صعد أرضا مرتفعة جفت

خيال صاحبه يبدو واضحا أمام السماء . شل الرعب
إيشابود إذ رأى أن هذا الفارس بلا رأس !! وازداد زعره
عندما رأى أن الرأس كان معلقا أمامه على السرج !

صار زعره أقرب لليأس . وأمطر الحصان بالركلات
على أمل الفرار بسرعة لكن الشبح لحق به .. هكذا
تطلقا وسط الأشجار والأحجار تطلق شررا عندما يدوسان
عليها . وطارت عباءة إيشابود في الهواء وهو منحني
على رأس حصاته أملا في أن يجعله يسرع .

كنا قد وصلا الطريق الذي يقود إلى (سليبي هولو) ،
لكن (بارود) الذي بدا كأنه ملبوس دار دورة عكسية
وهبط اتل من ناحية اليسار . هذا الطريق يقود إلى
الكنيسة .. ويمر بمنطقة تكثر فيها قصص الأشباح .

أعطى هذا التصرف الأحمق من الحصان بعض
التفوق في السباق لراكبه . لكن إذ هبط التل شعر
بالسرج يسقط من تحته . حاول أن يمسكه من الرمادة
بلا جدوى .. استطاع أن ينقذ نفسه بأن يحتضن عنق
(بارود) إذ هوى السرج للأرض .. وسمع حوافر
حصان مطرده تدوس عليه .

للحظة أصابه الرعب من (فان ريبير) لأن هذا هو سرج الأحد الخاص به .. لكن لا وقت لهذه المخاوف . إن الشبح يلاحقه وهو راكب غير ماهر عليه بذل مجهود ليظل على ظهر الحصان .

رأى فتحة بين الأشجار أخبرته أن جسر الكنيسة قريب .. وقد رأى نجفا فضيا يلمع فى الجدول فعرف أنه لم يخطئ .. رأى جدران الكنيسة تلمع تحت الأشجار ، وتذكر المكان الذى توارى فيه منافس (بروم بونز) ..

« لو بلغت الجسر لتجوت .. »

هنا سمع الجواد الأسود يلهث ويصهل جوار أنه .. بل تخيل أنه يشعر بسخونة أنفاسه . ضرب الحصان بين أضلعه ضربة أخرى فاتطلق (البارود) العجوز نحو الجسر .. وركض فوق ألواح الخشب . هنا نظر

إيشابود إلى الوراء ليرى إن كان مطارده سيختفى وسط النيران . هنا رأى العفريت يرتفع فى ركابه ويوشك على قذف رأسه عليه .. «

حاول إيشابود تحاشي القذيفة المريعة لكن تأخر الوقت .. لقد ضربت رأسه فطار ليسقط فى التراب .. وسرعان ما ابتعد (البارود) والراكب الشبح كأنهما العاصفة .

فى الصباح التالى وجدوا الحصان من دون سرجه ، والنجام تحت قدميه . وكان يأكل العشب عند بوابة سيده .

جاءت ساعة العشاء لكن لم يظهر إيشابود .

احتشد الأطفال عند المدرسة وراحوا يمشون على الجدول لكن لا ناظر هناك .. بدأ (فان ريبير) يشعر بالقلق على مصير إيشابود المسكين وسرجه ، وخرجت مجموعة للبحث عنه .. على جانب الطريق الذى يقود

للكنيسة وجدوا السرج فى الوحل وحوافر الحصان عميقة فى التربة ، وتتبعوها إلى الجسر . ثم عبروا الضفة حيث يجرى الماء عميقاً أسود .. هناك وجدوا قبعة إيشابود النعس وجوارها وجدوا قرعة مهشمة .

تم تفتيش الجدول لكن لم يجدوا جثة الناظر . وكمنفذ لوصيته قام (فان ريدر) بحرد إحدى كتبه التى تحوى كل ممتلكاته الدسوية .. تمسح ووصف وزوجين من امر .. من ثياب الداخلية لفصيه ومو .. من ممر ممرىء بالصفحات المطوية .

اما عن كتب المعنم فكانت ملكية عامة باستثناء كتب (مائر) عن الساحرات وكتب عن تفسير الأحلام وجدوا فيه محاولات فاشلة لكتابة قصيدة غزل فى ابنة (فان تيمبل) .

هذه الأشياء أحرقتها (فان ريدر) الذى صمم على ألا يرسل أطفاله للمدارس ثانية ، لأنه لم ير أى خير فى بدعة القراءة والكتابة تلك والدليل أن الناظر لم يكن يملك أى شيء ..

يوم الأحد التالى كان هناك الكثير من النقاش فى الكنيسة حول اختفاء الناظر الغامض .. تناثرت الأقاويل والاشاعات فى الكنيسة وعند الجسر وعند البقعة التى وجدوا فيها القرعة .

تذكروا قصصنا أخرى مماثلة فهزوا الرءوس واستنجوا أن المرئىق الراكض قد حمل إيشابود معه .

كان عزباً غير مدين لأحد لذا لم يرهق أحد نفسه بالتفكير أكثر من هذا .. تم نقل المدرسة لمكان آخر وتم تعيين ناظر جديد لها .

صحيح أن فلاح عجوزاً زار نيويورك بعد هذا بأعوام وعرفنا منه هذه المغامرة . وقد أعلن أن

إيشابود ما زال حياً .. وأنه ترك البلد خوفاً من الشبح ومن (فان ريبير) .. ولأن حبيبته تخلت عنه فجأة .. انتقل لمكان آخر وافتتح مدرسة وفي الوقت ذاته راح يدرس الفنون ..

أما (بروم بونز) فبعد رحيل منافسه استطاع أن يأخذ (كاترينا) للنضرة إلى مذبح الكنيسة ، وبدأ أنه يعرف تفاصيل كثيرة عن قصة إيشابود ، وكان يضحك من قلبه كلما ذكر موضوع القرعة .. مما جعل كثيرين يعتقدون أنه يعرف عن الموضوع أكثر مما اختار أن يحكيه .

الزوجات الريفيات العجائز هن على كل حال خير من يحكم على هذه الأمور ، وما زلن يؤكدن أن روح إيشابود اختطفتها قوى خارقة ، وما زالت هذه القصة محببة للسرد حول النيران في ليالي الشتاء .

ازدادت حالة التطير المحيطة بالجسر ولهذا - ربما - تم تغيير الطريق في السنوات الأخيرة ، بحيث تصل للكنيسة عن طريق الطاحونة .

تُهاوت المدرسة المهجورة ، وقيل إن شبح الناظر النصب يسكنها .. ويقول صبي المحراث إنه كان عائداً لبيته في ليلة صيف ، عندما سمع إيشابود يترنم عن بعد بمزمور حزين وسط الهدوء الناعس لـ (سليبي هولو) .

1819

* * *

ريب فان وينكل ..

وجدت هذه القصة بين أوراق المرحوم (ديدرتش نيكربوكر) ، وهو سيد مسن من نيويورك كان مهتماً بتاريخ الهولنديين في المقاطعة ، وطباع المنحدرين من مستعمراتها الأصليين . لكن دراساته التاريخية لم تعتمد على الكتب قدر ما اعتمدت على الناس ، لأن الكتب شحيحة في هذا الموضوع الأثير لديه ، بينما وجد كنزاً لا يقدر بمال لدى المواطنين المحليين ، وبصفة خاصة زوجاتهم . اللاتي يعرفن الكثير عن هذا الموضوع التاريخي .

لهذا كان إذا وجد أسرة هولندية أصيلة مستكنة في بيتها الريفي منخفض السقف تحت شجرة جميز وارفة ، فله يعتبرها حزمة من الوثائق المهمة ويدرسها بحماس دودة الكتب .

كانت نتيجة هذه البحوث هي تأريخ المقاطعة في عهد الحكام الهولنديين والذي طبعه بعد أعوام . كانت هناك آراء مختلفة حول القيمة الأدبية لهذا التاريخ .

كانت ميزته الرئيسية هي الدقة .. الدقة التي شكوا فيها في البداية ، لكنها صارت الآن حقيقة راسخة .. وقد انضمت هذه للسيرة لكتب التاريخ باعتبارها كتباً ذا مرجعية لا شك فيه .

توفي السيد العجوز بعد نشر هذا العمل بفترة قصيرة . لذا لا أعتقد أنني سأسبب أذى لو قلت إنه كان من الأفضل له لو استغل وقته في شيء أفضل ، مثل الأشغال الشاقة على سبيل المثال . لكنه على كل حال مارس هوايته كما أراد ، وبرغم أنها من حين لآخر نثرت الغبار في عيون الجيران ، وأحزنت بعض أصدقائه الذين كان يحمل نحوهم أعماق الاعتزاز ، إلا أن الناس يتذكرون أخطاءه (في أسف أكثر منه غضباً) ..

مهما كان رأي النقاد في ذكراه فإن الكثيرين ممن يهتم المرء برأيهم يحملون له مشاعر الإعزاز ، خاصة بعض خبازي الكعك الذين بلغ بهم الحماس أن حفروا صورته على كعك العام الجديد ، وبهذا منحوه فرصة

الخلود .. وهذا يشبه أن تنقش صورتك على ميدالية وترلو أو ربع بنس الملكة أن .

لا بد أن كل من قام برحلة فى نهر (هيسون) يتذكر جبال (كاتسكيل) .. إنها فرع مشوه من مرتفعات الأبالاشى ويمكنك أن تتابعها على مجرى النهر كأنها تحرس الريف المجاور . إن كل تغيير فى الفصول .. كل تغيير فى الطقس .. بل كل ساعة فى اليوم تحدث تغييراً ما فى أشكال هذه المرتفعات .. وتنظر لها الزوجات الطيبات على أنها بارومترا (مقاييس جو) ممتازة . حينما يستقر الطقس تتدثر باللونين الأزرق والأرجوانى وترسم حدودها على السماء الصافية ، لكن حينما تختفى السحب تتكثف فوقها أبخرة رمادية على القمم تتوهج مع أشعة الشمس الغابة لتبدو كأنها تيجان مجد .

أسفل هذه المرتفعات قد يلمح المسافرين الدخان الخفيف ينبعث من قرية تلتصق أسقفها فى ضوء الشمس بين الأشجار ، حيث ينوب الأفق فى السماء ..

إنها قرية صغيرة قديمة جداً أسسها المستعمرون الهولنديون فى الأيام الأولى من عهد (بيتر ستوفيزانت) ليرحمه الله - وهناك منازل معدودة للسكان الأصليين بنيت من قرميد أصفر جاء من هولندا وله نوافذ متشابهة وواجهات من الجملون عليها الديكة الدوارة التى تتنبا بالطقس .

فى هذه القرية بالذات وفى واحد من هذه البيوت (التى أعترف بأن الزمن أبلاها) عندما كانت البلاد من أملاك ملك بريطانيا العظمى ، عاش رجل بسيط طلق لسجنياً يدعى (ريب فلان ونكل) .. كان من (آل ونكل) الذين طار صيتهم فى أيام (بيتر ستوفيزانت) المليئة بالفروسية ، ورافقوه فى حصار حصن (كريستينا) . لكنه ورث القليل من مجد أجداده العسكرى .. وقد سبق أن قتت إته رجل بسيط طلق السجائى ، وكان جاراً طيباً وزوجاً طيباً كالدجاجة . ولا بد أن الخصلة الأخيرة هى التى أكسبته هذه الشعبية ، لأن الرجال الذين يظهرون الخنوع والطيبة فى الخارج هم الذين تسيطر عليهم زوجة متمرة فى البيت . بلا شك تصير طباعهم لينة

قابلية للطرق من فرط حياتهم في نار فرن الحياة المنزلية انقاسى . هذه هى مزايا الصبر الطويل والمعلقة ..

من هذا المفهوم تصير الزوجة المشاكسة الشرسة بركة حقيقية . وبهذا المعنى قد ظفر (ريب فان وينكل) بالبركة مضاعفة ثلاث مرات .

بالقطع كانت زوجات المنطقة يملن له وفى كل مشاجرة له كن ينقن النوم على مدام (فان وينكل) .

كذلك كان أطفال القرية يتصايحون فرحاً عندما يقترب .. كان يساعدهم فى اللهو ويصنع ألعابهم ويعلمهم كيف يطبشرون الطائرات الورقية وكيف يقذفون البلى ، وكان يحكى لهم قصصاً ممتعة عن العفاريت والهنود ..

وكلما مشى فى القرية كن يحاط بمجموعة منهم . يتعلقون بظهره ويلعبون ألف حيلة عليه بلا عقاب ، ولم يكن كلب واحد ينبح عليه فى القرية كلها .

كانت غلظة (ريب) العظمى هى نفوره من أى نوع من العمل المربح . لم يكن هذا عن كسل أو عوز للاجتهاد . لأنه كان قادراً على الجلوس على صخرة رطبة حاملاً قضيباً ثقيل كأنه رمح تترى ويصطاد طول اليوم دون شكوى .. حتى لو لم يجد سمكة واحدة . لم يأب قط معاونة أى جار حتى فى أصعب عمل ممكن ، وكان أسرع الريفيين الذين ينزعون أغلفة القمح الهندى أو ينون سياجا حجرية ، وكانت نسوة القرية يرسلنه فى مأمورياتهن وكل ما لا يرغب أزواجهن الأقل مجاملة فى عمله . باختصار كان (ريب) يؤدى عمل الجميع ما عدا عمله هو نفسه ، وكان يجد أداء واجبات الأسرة وإدارة مزرعته أموراً مستحيلة .

فى الواقع قال إن العمل فى مزرعته ليس مفيداً ، وكانت أسوأ قطعة أرض فى الريف كله . كل ما يخصها كان خطأ وسوف يظل خطأ بالرغم منه . كانت أسواره تسقط دوماً وأبقاره تضل طريقها ، أو تدخل على الكرتب .. وكان العشب ينمو أسرع فى مزرعته من أى مكان آخر . وكانت الأمطار تتجمع فى المكان الذى

يكون عليه القيام بعمل فيه . وراحت مزرعته تزول
قيراطا خلف آخر حتى لم يعد لديه سوى بعض القمح
الهندي والطماطم .

كان أطفاله أيضا مبعثرى الثياب متوحشين كأنما
ليسوا ملكا لأحد ، وبدا أن ابنه (ريب) المراهق سوف
يرث الطباع ذاتها كما يرث ثياب أبيه . كنت تراه يمشى
كالمهر خلف أمه ، لابسا زوجا من سراويلات أبيه
القصيرة وقد اضطر أن يمسكها بيده كما تفعل السيدات
الراقيات بذيل ثوبهن فى الجو المطير .

على كل حال كان (ريب فان ونكل) واحدا من
الفانين السعداء ذوى الميول الحمقاء الذين يأخذون
العالم ببساطة ، ويأكلون الخبز الأبيض أو الأسمر بأقل
منونة من التفكير أو المشاكل ، ويفضل أن يجوع ومعه
قرش على أن يعمل للحصول على جنيه . فلو ترك
وشأته لمرت حياته بسهولة تامة ، لكن زوجته ظلت
تلومه على كسله ولامبالاته والخراب الذى يجلبه
للأسرة .. طيلة النهار والظهيرة والمساء يعمل لساعاتها

بلا انقطاع ، وكل شيء يفعله أو يقوله يسبب إحصارا
من البلاغة المنزلية .

كانت له طريقة واحدة فى الرد على هذه المحاضرات
وقد صار يجيدها من كثرة الاستعمال . هى أن يهز
كتفيه ورأسه ولا يقول أى شيء .. كان هذا يجعل
زوجته تطلق وابلا من السباب مما يجعله يشفق
الخروج من البيت . المكان الوحيد الذى يخص هذا
الزوج الخنوع فعلا .

كان الشيء الأساسى الذى يخص (ريب) فى الدار
كلبه (وولف) الخنوع مثل سيده ، لأن المدام اعتبرت هما
رفيقين فى البلاء ، وكانت تنظر لـ (وولف) نظرة
شريرة باعتباره سبب ضلال سيده .

فى الحقيقة كان كلبا محترما شجاعا كأفضل حيوان
مشى فى الغابة ، لكن أية شجاعة يمكن أن تتحمل
الأهوال الأبدية للسان المرأة السليط ؟

ما إن يدخل (ولف) البيت حتى يتهاوى كبرياؤه ويلمس
ذيله الأرض أو يتكور بين فخذه ، ويتسلل خائفا وهو

ينظر نظرات جانبية خائفة للسيدة (فان ونكل) وبمجرد أن تتحرك مكنسة يطير الباب وهو ينبج .

ساعت أيام (ريب فان ونكل) إذ تقدمت به فترة الزواج ، مع طبع حاد لا يرقى بمرور الوقت ، واللسان السليط هو الشيء الوحيد الذى يزداد قوة بكثرة الاستعمال .

كان يسلى نفسه عندما يطرد من البيت بأن يقصد التلاى الدائم للحكماء وفلاسفة القرية . الذى كان يجتمع فى مقعد أمام حانة صغيرة تعود لأيام جلالة الملك (جورج) الثالث . هناك يجلسون فى الظل فى يوم صيف خمول يتبادلون الإشاعات عن القرية أو يحكون قصصا باعسة لا معنى لها عن لاشيء . لكن الأمر كان يستحق لو سمعت المناقشات التى كانت تدور من حين لآخر حينما تقع فى أيديهم جريدة سقطت من مسافر ..

كانوا يصغون للمكتوب إذ يقرؤه (ديريك فان بومل) ناظر المدرسة . وهو رجل رشيق مثقف لا تستوقفه أضخم كلمة فى القاموس . وكانوا يعلقون على الأحداث الكبرى بعد وقوعها بأشهر عدة .

كان (نيكولاس فيدر) ينسق آراء هذه الزمرة ، وهو بطريق القرية وصاحب الحانة التى يجلس على بابها من الصباح حتى المساء .. فقط يتحرك بحيث يتفادى الشمس ويبقى فى ظل الشجرة العملاقة بحيث يعرف الجيران الساعة من وضع مقعده . كأنها مزولة .

صحيح أنه لم يكن يتكلم إلا فيما ندر ، لكنه كان يدخل غليونيه بلا انقطاع . وكان أتباعه (وكل رجل عظيم له أتباع) يفهمونه ويعرفون كيف يظفرون بأرائه .

كان إذا سمع شيئا لا يروق له يدخل غليونيه فى حدة ويطلق نغمت غضبى لكن إذا سره ما سمع بدأ يزفر الدخان بهدوء وتلذذ . أو يمسح الغليون من فمه ويدع الدخان العطر يتف حول أنفه

حتى فى هذه القنعة الحصينة لم يكن (ريب) التعس فى مأمن من زوجته الشرسة . كانت تنقض على الجلسة الهادئة وتدعو على الموجودين بالخراب التام . وحتى هذا الرجل المهيب (نيكولاس فيدر) لم يكن

بما من من لسانها السليط وكانت تتهمة مباشرة بأنه
يشجع زوجها على الكمل .

تملك اليأس (ريب) البائس وكان مهربه الوحيد
للقرار من عمل المزرعة وتذمر زوجته أن يأخذ بندقيته
ويجول في الغابة . هناك قد يجلس على جذع شجرة
ويقاسم (وولف) محتويات حافظته .. فقد كان يعتبره
زميلاً في الاضطهاد والمعاناة :

- « يا (وولف) المسكين .. سيدتك تعذبك .. لكن
لا تقلق يا صاحبي .. ما دمت حياً لن تحتاج لصديق يقف
جوارك »

فكان (وولف) يهز ذيله وينظر بحزن لوجه
صاحبه ، ولو كانت الكلاب تشعر بالشفقة فأتا واثق من
أنه كان يبادل صاحبه المجاملة من أعماق قلبه .

ذات يوم خريفى جميل ، تسلق (ريب) وهو لا يشعر
إلى جزء من أعلى أجزاء مرتفعات (كاتسكيل) . كان
يبغى صيد السناجب كعادته وقد ردد الصمت مرارا
ومرارا طلقات بندقيته . لاهثاً منهكاً ألقى بنفسه وقت

العصر على هضبة صغيرة تغطيها أعشاب الجبال التى
تتوج أعلى المنحدر . ومن فتحة بين الأشجار كان يرى
الريف على بعد ميل محاطاً بالغابات . على البعد رأى نهر
(هيسون) العظيم يتحرك فى صمت عبر دربه السحري
للصامت بينما تنعكس سحابة أرجوانية هنا وهناك .. غافية
على صدره الزجاجى ثم فى النهاية تتلاشى فى الزرقة .

على الجانب الآخر رأى وادياً عميقاً منعزلاً .. برياً
مفقراً .. وقد امتلأ قاعه ببقايا للصخور الهلوية . تضئنه
بصعوبة أشعة الشمس .. رقد (ريب) بعض الوقت يرمى
المشهد وكان الليل يقترب والجبال تلقى ظلالها للزرقاء فوق
الواديان . رأى أن الظلام سيحل قبل أن يبلغ القرية . وتهد
لما أدرك أنه سيعود إلى أهوال العدم (فان ونكل) .

إذ أوشك على النزول سمع صوتاً ينادى من بعيد :

- « (ريب فان ونكل) .. (ريب فان ونكل) !! »

نظر حوله فلم ير إلا غراباً يحلق فوق الجبل . فكر
فى أنه يتخيل ، واستدار ليهبط ، لكن سمع ذات الصيحة
تتردد عبر الجبال :

- « (ريب فان ونكل) .. (ريب فان ونكل) !! »

فى نفس النحلة قوس (وولف) ظهره ، وأطلق عواء خفيضاً . وراح ينظر فى زعر إلى الوادى شعر (ريب) بتوجس حفى ، ونظر فى رهبة إلى هذا الاتجاه . كان شيء غامض يتساقط الصخور وقد اتحنى ظهره من ثقل شيء ثقيل على كتفه . دهش إذ رأى بشرا فى هذا المكان الخفر ، لكنه افترض أن هذا واحد من الجيران بحاجة لعونه فتوقف كي يمنحه العون

إذ دنا انغريب أكثر ظل مندهشاً من غرابة مظهره . كان شيخاً قصير القامة قوى الذيان له شعر كث ولحية خطها الشيب وثيابه كانت على الطراز الهولندى العتيق ، وكان على كتفه برميل صغير يبدو أنه ملىء بالخمر .. أشار لـ (ريب) كي يساعده فى حمله .

برغم خجله وشكه فى هذا الوجه الجديد ، فقد ساعده (ريب) بحفته المعهودة وجنس الرجلان على حافة أخدود كانت تجرى فيه السيول قديماً .. وإذا نزلوا كان (ريب) يسمع من بعيد صوت جلجلة أجراس كأنها قائمة من وهد بعيد توقف ليصفى ثم فكر أن هذه

إحدى الانهيارات التى تحدث من حين لآخر فى الهضاب العالية . وإذا مرا بالوهد بلغا أرضاً منبسطة تحيط بها صخور عمودية فوقها أشجار تنشر غصونها فلم يريا إلا جزءاً من السماء وسحب المساء اللامعة .

طيلة هذا الوقت ظل (ريب) ورفيقه صامتين الأول كان يتساعل عن مغزى حمل برميل مملئ من أعلى هذه الهضبة المتوحشة . لكن كان هناك شيء غامض فى المجهول جعله يشعر بالرهبة

هنا بدأت عجائب أخرى تظهر نفسها ، فموقعهم مستوية كان عدد من الأفراد غريبى المظهر يلبسون لعبة الأوتاد التمتعة .

كتوا يلبسون ثياباً حمجية عتيقة الطراز .. وبعضهم كان يلبس صدریات قصيرة ، وبعضهم يحمل مذابح حرامه وأكثرهم كان ينسج مراويل قصيرة وهو مظهر يشبه منظر الدليل .

سمتهم أيضاً ككت متميزة .. أحدهم كان ذا لحية عملاقة ووجه عريض وعينين خنزيرتين صغيرتين ، واحد آخر بدا

وجهه كلما لا يحوى إلا الأنف .. وعليه قبعة رغيفية
المنظر بيضاء كالسكر ويتدلى منها ذيل ديك أحمر ..

كلهم كانوا ملتحين .. لحي مختلفة الألوان والأحجام .
وبدا أن أحدهم هو القائد .. كان شيخاً سميناً لوحث
الشمس سحته .. وكان يلبس قبعة عالية مزينة
بالريش وله جورب أحمر وحذاء عالى الرقبة مزين
بالزهور .

ذكرت المجموعة (ريب) بالصور الفلامنكية القديمة
فى بهو (دومينى فان شيك) خورى البلدة . والتى
جلبها من هولندا عندما أنشئت المستعمرة .

ما بدا غريباً لـ (ريب) هو أن هؤلاء القوم يسلمون
أنفسهم إلا أن وجوههم شديدة الصرامة واحتفظوا
بصمت غريب ، بحيث كانوا أكثر مجموعة مرححة كآبة
رأها فى حياته لا صوت إلا صوت الكرات التى
يقذفونها فتحدث صوت أجراس تتردد عبر الريف كله
كانها عواصف رعدية .

إذ لنا (ريب) ومرافقه منهم ، كفوا عن اللعب
وراحوا يرمقونه بنظرة ثابتة كأنهم التماثيل .. بوجوه
كأحة فاقدة البريق حتى إن قلبه اعتصر واصطكت
قدماه ..

أفرغ مرافقه البرميل فى قنائن كبيرة ثم طلب منه
بالإشارة أن ينضم للمجموعة أطاع فى خوف بينما هم
يشربون الخمر فى صمت ثم يعودون للعبهم .

بدأ خوف (ريب) ورهبتة يتلاشيان ، بل خاطر
عندما لم تكن هناك نظرات مصوبة نحوه بأن يذوق
الشراب .. وجده شبيهاً بالمشروبات الهولندية
المتأزة كان بطبعه من الطراز شديد الظمأ لذا كرر
الجرعة . جرعة تلت أخرى وبدأت قواه تتخلى عنه ..
شعر بعينيه تسبحان فى رأسه وبدأ رأسه يتهاوى
وغاب فى سبات عميق .

إذ صحا وجد نفسه على الهضبة الخضراء التى رأى
عندها الرجل المسن . فرك عينيه فقد كان صباحاً

مشتمت كانت الطائر تشقشق بين الفصون والعقاب
يخفى فى السماء مسما هواء التلال النقى .

فكر (ريب) :

« بالتأكد لم أتم هنا طيلة الليل . »

وتذكر ما رآه نيل النوم . الرجل الغريب الذى
يحمل برمسلا ولوهده والمخبأ بين الصخور ..
والمجموعة العجيبة التى تلعب لعبة الأوتاد التسعة ..
القارورة .

« تلك القارورة . تلك القارورة اللعينة ماذا

سأقول للمدام (فان ونكل) لأفسر ؟ »

ونظر حوله بحث عن بندقيته لكن بدلاً من السلاح
النظيف المدهون بالنزيت وجد بندقية عتيقة جواره ..
وقد غطى الصدا العاسورة وسقط تزياسها .. بدأ يشك
فى أن هؤلاء المهرجين قد لعبوا حيلة عليه .. خدروه
بالخمر وسرقوا سلاحه .

روايت مصرية للجيب .. روايت عالمية ' ١٠٥

لقد اختفى (وولف) كذلك لكن ربما كان يطارد
منجانباً أو طائر حجل .. صفر يناديه وصاح باسمه لكن
بلا جدوى .. رددت الأصدا الصفير الصراح لكن لم
يظهر كلب ..

قرر أن يزور موقع حفل أمس كى يطالب بخلقه
وبندقيته . إذ نهض ليمشى وجد أنه مستعبت انشغال
يفتقر للياقة المعتادة ..

فكر (ريب) :

« هذه الأسرة الجبلية لا تناسبنى وقد كنت قددا

الحفل سيتركنى فريسة الروماتزم فسوف يكون لقتلى
مع المدام (فان ونكل) رقعا »

وجد الأخدود الذى تسلفه مع مرافقه لشدة امس يمكن
لشدة دهشته كان نهير جبلى يتدفق الآن عبره يتواثب
من صخرة لأخرى ويملاً الأخدود بانسواء قرر أن
يتسلق جانيه وراح يشق طريقه العسر بين شجر الأشجار

وأغصان البتولا .. وكان يشبك بفصوص الكروم التي
تلتف من شجرة لأخرى .. وتشكل شبكة تسد دربه .

عن بعد بلغ الموضع الذي ينزل فيه الوهد إلى
الوادي .. لكنه لم يجد فتحة . كانت الصخور تشكل
جداراً لا يمكن اختراقه ، ومن فوقه كان الماء يتدفق
ليحدث رغوة كثيفة .

هنا توقف (ريب فان ونكل) المسكين ..

من جديد صفر ونادى كلبه فلم يجب عليه إلا نحيب
الغربان وهي تحلق حول شجرة جافة تقف جوار جرف
تغمره الشمس . كانت الغربان تشعر بالأمان في
تحليقها ، فبدأ أنها تنظر لحيرة هذا البائس ..

ماذا يفعل ؟ إن النهار يرحل وهو يشعر بالجوع لأن
هذا موعد إفطاره ..

أحزنه التخلي عن سلاحه وكلبه وكان يخاف لقاء
زوجته ، لكن ليس من العقل أن يموت جوعاً وسط

التلال .. لهذا حمل البندقية العتيقة الصدنة على كتفه ،
وبقلب ملء بالأسى والحزن نزل متجهاً لداره .

إذ دنا من القرية قابل أناساً لم يعرف واحداً منهم ..
وهذا أثار دهشته لأنه كان يحسب نفسه خبيراً بكل
سكان الريف .

كنت ثيابهم غريبة كذلك .. موضة تختلف عن التي
ألغها ..

راحوا ينظرون له في دهشة وكلما نظروا له حكوا
ذقونهم .. تكرر هذه الإشارة أثار انتباه (ريب)
فتحسس ذقنه لا شعورياً . إذا به يجد أن لحيته طولها
قدم !

كان قد بلغ حدود القرية ، فراح حشد أطفال غرباء
يجرون وراءه ويصيحون ويشيرون للحية الرمادية .
وكذلك الكلاب التي لم يعرف أيّاً منها .. لقد راحت تنبح
عليه ..

لقد تغربت غريبة كلها .. كانت كبيرة ومزدحمة ..

هناك بيت مدبرها قط .. أسماء غريبة على
الأنبياء .. غريبة في النواقيذ .. كل شيء
غريب .. نفس عنه عقله وراح يتساءل إن كان هو
أو العالم حوله مسحوراً ..

البيت الذي فيه كما تركها .. هناك مرتفعات
(كانت) .. يجرى نهر هدسون الفضى .. كل تلة
حيث ترهب .. شعر بذهول بالغ :

.. تلك ليلة أمس .. لا بد أنها اطار
صوابي .. «

بمعربة وجد .. يق داره .. فدنا منه في رهبة
صدمة .. متردد .. يسمع صراخ المدام (فان ونكل)
في أية لحظة ..

وجد البيت .. والسقف قد هوى والنواقيذ
محطمة .. سترعة من مفصلاتها .. كلب جائع

يشبه (وولف) يقف هناك .. ناداه (ريب) باسمه لكن
الكلب زمجر وكثر عن أنيسه ثم ابتعد .

قال (ريب) متتهذا :

« حتى كلبى ذاته قد نسلى .. »

دخل البيت الذي كانت مدام (فان ونكل) تحافظ عليه
منظماً إذا أردنا قول الحقيقة .. كان خالياً مهجوراً ..
هذا قهر مخاوفه الزوجية فتادها نادى زوجته
وأطفاله .. فرددت الغرف الخالية صوته ثم ساد
الصمت ..

أسرع نحو ملجئه القديم حانة القرية .. لكنها
كانت قد احتفت

كانت هناك بناية من الخشب مكاتها ولها نوافذ كبيرة
بعضها تهشم وتم إصلاحه بالقبعت والتورات .. وفوق
الباب لافتة تقول :

فندق الاتحاد

جوناثان دوليتل

وبدلاً من الأشجار التي كانت تظلل الحانة الهولندية كان هناك قضيب عال على قمته شيء يبدو كعباءة حمراء .. ومنها يرفرف علم عليه حشد من النجوم والشرائط ..

كان كل هذا غريباً غير مفهوم .. لقد عرف العلامة التي كتبت عليها صورة الملك (جورج) الذي كان يدخل غليونيه في سلام تحته ، لكنه كان قد تغير .. لقد كان يحمل سيفاً في يده بدل الصولجان ، والرأس زين بقبعة متبخثرة ، وتحتها كتب بحروف كبيرة (الجنرال واشنطن) .

كان هناك كالعادة حشد من الناس عند الباب لكن لم يعرف أحدهم .. بدا كأن طبع الناس ذاته تغير . صاروا مشغولين صاخبين بدلاً من النعاس وصوت البلغم في الصدور .. بحث عن الحكيم (نيكولاس فيدر) بوجهه العريض وذقنه المزدوجة وغليونيه الطويل الذي يطلق سحب الدخان بدلاً من الكلمات .. أو (فان بومل) الناظر الذي يطالع محتويات جريدة عتيقة ..

روايت مصرية للجيب .. روايات عالمية ٩٩١

بدلاً من هذا كان شاب نحيل صفراوى الهيئة امتلأت جيوبه بالمنشورات يلقي خطبة ملتهبة عن حقوق المواطنين والانتخابات وأعضاء الكونجرس والحرية و(باتكرز هيل) .. كانت هذه رطانة باللغة البابلية بالنسبة لـ (فان ونكل) الحائر ..

كان منظر (ريب) بلحيته الشائبة وبندقيته الصلبة وجيش من النساء والصبية وراءه مما يجذب انتباه السياسيين بالحانة ..

التفوا حوله يرمقونه من رأسه لتقديمه بفضول عظيم ..

جذبه الخطيب ودفعه ليقف إلى جانبه ثم سأل :

- « أي جانب انتخبته ؟ »

نظر له (ريب) في غباء مطلق .. هنا جذبه شاب قصير القامة من ذراعه وهزه ليقف على أطراف أصابعه ومائل في أذنه :

- « هل أنت اتحادى أم ديمقراطى ؟ »

لم يفهم (ريب) هذا السؤال ..

هنا شق الرحام رجل معتد بنفسه عظيم ببواطن الأمور ، دافعا الناس بكوعيه ذات اليمين واليسار ثم وقف أمام (ريب فان ونكل) ونظر له نظرة كادت تخترق روحه ، وسأله بنبرة صارمة :

- « كيف جاء الانتخابات ببندقية على كتفه ورعاع من خلفه ؟ هل يريد أن يحدث شغباً فى القرية ؟ »

صاح (ريب) خلفاً :

- « واحمرته يا سادة ! لئلا رجل هذى فقير . من مكان المكان ومن رعيا الملك المخلصين .. فليحفظه الله . »

هنا دوى الصراخ من الواقفين :

- « محب لبريطانيا ! محب لبريطانيا ! جاسوس ! لاجئ .. اطرده ! اخلصوا منه .. »

بكثير من العصر استطاع الرجل ذو القبعة أن يعيد الهدوء ، وقد تجعد حاجباه أكثر عشر مرات ، ومن جديد سأل المتهم المجهول عن سبب مجيئه . من يسأل عنه ؟

طمأنه الرجل البائس أنه لا يبغي ضرراً لكن جاء بحثاً عن بعض الجيران الذين كانوا يملكون الحانة .

- « ومن هم ؟ قل أسماءهم .. »

فكر (ريب) قليلاً ثم سأل :

- « أين (نيكولاس فيدر) ؟ »

للحظ لم تزل تصمت ، ثم أجاب عجوز فى صوت حاد :

- « (نيكولاس فيدر) ؟ لقد مات منذ ١٨ عاماً !!

كان هناك شاهد قبر فى فناء الكنيسة بقص قصته لكن هذا قد ذهب وتآكل كذلك »

- « أين (بروم دوتشر) ؟ »

- « ذهب للحرب فى بدايتها .. يقول البعض أنه قتل

أثناء قصف (ستورمى بوينت) .. آخرون يقولون إنه

غرق فى عاصفة عند (أنف أيطونى) .. لا أعرف ..

المهم أنه لم يعد قط .. »

- « وأين الناظر (فان بومل) ؟ »

« ذهب للحرب كذلك وكان قائدًا عظيمًا .. وهو الآن فى الكونجرس .. »

تداعى قلب (ريب) إذ سمع هذه الأنباء السيئة عن بيته وأصدقائه .. إنه وحيد فى العالم . أدهشته كل إجابة بكل هذه المواضيع التى لا يفهمها : الحرب الكونجرس ستونى بوينت ولم يملك شجاعة كي يسأل عن أصدقاء آخرين .. لكنه صاح فى يأس :

« هل يعرف أحدكم هنا (ريب فان ونكل) ؟ »

صاح اثنان أو ثلاثة :

« أوه .. (ريب فان ونكل) ! لو أردت الدقة فهذا ابنه يستند على الشجرة .. »

نظر (ريب فان ونكل) فرأى صورة أخرى دقيقة منه يوم تسلق الجبل .. غالبًا نفس الكسل وبالتأكيد نفس الثياب الرثة .

الآن كان الرجل المسكين فى أتعس حال .. بدأ يشك فى حقيقته وما إذا كان شخصًا آخر . وفى وسط حيرته سأله الرجل المعتد بنفسه عن هو وما اسمه ..

صاح وقد (غلب حماره) :

« الله أعلم .. لست أنا .. أنا شخص آخر .. هذا ابنى .. لا .. هذا شخص لبس ثيابى .. كنت نفسى أمس لكن نمت فى الجبال وقد بدلوا مسلحي وتغير كل شيء .. وأنا تغيرت .. لا أعرف اسمى ولا من أنا .. »

بدأ الواقفون يتبادلون النظرات ، وهزوا الرؤوس وغمزوا لبعضهم ودقوا بأصابعهم على الجباه . وتعالى همس عن ضرورة أخذ السلاح منه لمنع العبور من ارتكاب مصيبة .. هنا تسحب الرجل المتألق دون إبطاء .

فى هذه اللحظة الحرجة ظهرت امرأة مليحة واخترقت الزحام لتلقى نظرة على الرجل أشيب اللحية . كان بين يديها طفل ممتلئ .. وقد أصابه الهلع من منظره فراح يصرخ .

قالت :

« اصمت يا (ريب) .. اصمت يا أحق .. العبور لن يؤذيك .. »

أرْقِظْ اسمَ الطفلِ وانطباعَ أمه وصوتها قطاراً من
التكريات في عقله ، فسلها :

- « ما اسمك أيتها المرأة الطيبة ؟ »

- « (جويث جاردنير) .. »

- « واسم أبك ؟ »

- « آه .. كان المسكين يدعى (ريب فن ونكل) .. لكن
هذا كان منذ عشرين عاماً حينما ترك البيت بسلحه ..
ولم نسمع عنه من حينها .. جاء كئيب من دونه ..
لا نعرف إن كان أطلق الرصاص على نفسه أم اختطفه
الهنود .. لا أحد يعرف .. كنت طفلة وقتذاك .. »

لم يكن لدى (ريب) إلا سؤال واحد يسأله لكنه سأله
متلعثماً :

- « أين أمك ؟ »

- « أوه . لقد ماتت بعد وقت قصير .. انفجر أحد
شرائينها في نوبة انفجار لدى أحد بقائي (نيو
إنجلند) .. »

على الأقل كان هذا الجزء مما يريح النفس ..

لم يستطع الرجل أن يتمالك نفسه أكثر فامسك بابنته
وظفلها وعانقهما وصاح :

- « أنا أبوك الذي كان (ريب فان ونكل) الشاب
هو (ريب فان ونكل) العجوز الآن .. هل يعرف أحدكم
(ريب فان ونكل) النص ؟ »

وقف الكل مذهشين حتى خرجت عجوز تترنح من
وسط الزحام ، ووضعت يدها على حاجبها وظلت تحديق
في وجهه للحظات ثم هتفت :

- « بالتأكيد ! هذا هو (ريب فان ونكل) !! إنه هو
نفسه ! مرحباً بك في دارك ثانياً يا جاري العجوز ..
أين كنت طيلة عشرين عاماً ؟ »

حكى (ريب) قصته لأن العشرين عاماً كانت بالنسبة
له ليلة واحدة .. حرق فيه الجيران وهو يحكيها ،
وبعضهم راح يغمز لجاره أو يضع لسانه في خده .. أما
للرجل المعتد بنفسه الذي شعر بأن الخطر زال فقد عاد

للحقل ، ولوى طرفى فمه وراح يهز رأسه .. هكذا هز كل الواقفين رعوسهم .

تقرر أخذ رأى العجوز (فاتردوت) الذى شوهد يقترب فى الطريق كن حفيد مورخ بحسب الأسطورة .
كتب واحداً من أقدم التقاويم للمقاطعة

كان (بيتر) أقدم سكان القرية ويحفظ كل تاريخ وتقاليد الجيرة .

نظر لـ (ريب) بعض الوقت ، وأيد قصته بشكك مقنع جداً .. أكد للواقفين أن هذا حق .. لقد قل سلفه للمورخ أن مرتفعت (كتسكيل) كانت مسكونة يوماً بكثنت غريبة ..

وأكد أن (هندريك هوسون) العظيم الذى اكتشف المقاطعة والنهر يقيم احتفالاً ليلاً مع طاقمه كل عشرين عاماً ، على سبيل زيارة مسرح أمجاده .. ويحرس النهر والمدينة العظمى التى تحمل اسمه . قال إن أباه رآهم ذات مرة فى ثيابهم الهولندية القديمة ، يلعبون لعبة الأوتاد التسعة فى واد بالجبل .. وإبه سمعهم ذات ليلة صيف كأنهم أصوات الرعد البعيدة .

روايات مصرية للجيب .. روايات عالمية ١١٩

لنختصر : نقول إن المجموعة تفرقت وعادت لموضوع الانتخابات الأكثر أهمية . أخذت ابنة (ريب) أباهما للدار ليعيش معها ، وكان عندها بيت أنيق مؤثث جيداً وفلاح بدين لطيف هو زوجها .. تذكر (ريب) أنه كان أحد الصبية الذين يتسلقون ظهره ..

أما عن ابن (ريب) ووريثه الذى يشبهه تماماً فقد عين ليعمل فى المزرعة ، لكنه أظهر ميله الوراثى لعدم عمل أى شيء إلا ما يهيمه شخصياً .

استعاد (ريب) عاداته القديمة وجولاته ، وسرعان ما وجد عدداً من رفاق الماضى لكن حالهم كانت مزرية بسبب مفعول الزمن .. وقرر أن يكون صداقات بين الأحيال الصاعدة الذين صاروا يميلون له بسرعة .

ولما لم يكن لديه ما يفعله فى البيت ، وبما أنه بلغ السن التى يمكن للمرء أن يكون كسولاً ولا يلام ، فقد عاد ليجلس أمام الحانة ، واعتبروه من حكماء القرية وشاهدوا على الزمن القديم (قبل الحرب) .

مر وقت طويل قبل أن يندمج في القبل والقال أو يفهم الغرائب التي جرت أثناء سباته . كيف وقعت حرب استقلال وكيف تحرر البلد من سيطرة إنجلترا العجوز . وأنه لم يعد من رعايا جلالة الملك (جورج الثالث) بل هو مواطن حر للولايات المتحدة .

لم يكن (ريب) يبالي بالسياسة في الواقع ، ولم تؤثر فيه قصص تغيرات الولايات .. لكن كان هناك نوع واحد من الاستبداد عانى منه كثيرا .. هذا هو (حكومة التنورات) .. لحسن الحظ انتهى هذا ولم يعد عنقه في مصيدة الزواج ، وصار بوسعه أن يخرج ويدخل متى أراد من دون التهديد الاستبدادي للمدام (فان ونكل) .

كلما ذكر اسمها كان يهز رأسه وكتفيه وينظر لأعلى . وهو انطباع كان يمكن تفسيره بالاستسلام لقدره أو فرحة الخلاص .

اعتاد أن يحكى قصته لكل غريب يصل لفندق مستر (دوليتل) ، وقد لوحظ أنه كان يغير بعض النقاط كلما حكى القصة . وهذا يرجع في الغالب لأنه استيقظ من

وقت قصير . في النهاية استقر على القصة كما حكيتها أنا .. وما من طفل أو امرأة إلا ويحفظها عن ظهر قلب ..

أحيانا يشكك البعض فيها ويصرون على أن (ريب) كان يخرف ، وهذه النقطة كانت تجعله متأهبا للشجار دوما . إلا أن السكان الهولنديين يعطون القصة حقها بلا استثناء ، وحتى اليوم لا يسمعون عاصفة رعديّة في عصر صيف عند (كاتسكيل) إلا وقالوا إن (فريدريك هيسون) ورجله يلعبون لعبة الأوتاد التسعة .

ويتمنى كل الأزواج الخنوعين في المنطقة حينما تصوء الأمور معهم أن يجدوا شربة تمنحهم بعض الراحة في قنينة (ريب فان ونكل) .

* * *

ملحوظة :

كما يمكن للمرء أن يعتقد ، فإن القصة السابقة قد استوحاها مستر (نيكر بوكر) من خرافة ألمانية صغيرة عن الإمبراطور فردريك روزبارت وجبل (كيفهاوزر) .. إلا أن المذكرة الملحقة بالقصة تؤكد أنها حقيقة مطلقة كما يقول بأسلوبه الصادق :

- ربما تبدو قصة (ريب فان ونكل) لا تصدق لدى كثيرين ، لكنني أصدقها بالكامل لأنني أعرف تلك البقاع المجاورة لمستوطناتنا الهولندية ، وأعرف أن كل أنواع الغرائب تحدث فيها . لقد سمعت قصصاً غريبة أكثر من هذه في القرى المحيطة بنهر هيسون ، وكلها موثقة لا تسمح بالشك .

لقد تحدثت مع (ريب فان ونكل) بنفسى ، وآخر مرة رأيته فيها كان رجلاً مهيباً عجوزاً جداً لكنه عاقل وكلامه متسق في كل النقاط .. لهذا لا أعتقد أن أى شخص ذى ضمير يمكن أن يرفض هذا ، دعك من أنني

رأيت شهادة عن الواقعة أخذت في المحكمة وختمت بالصليب بيد القاضى نفسه . لهذا فالقصة فوق أية شبهات .

د . نيكز بوكر

تعقيب :

الملاحظات التالية هي مذكرات كتبها مستر (نيكر

بوكر) :

إن مرتفعات (كاتسبيرج) أو (كاتسكيل) منطقة تعج بالقصص الخرافية . كان الهنود يعتبرونها مسكن الأرواح التي تتحكم في الطقس والشمس والسحب . وهي التي ترسل فصول الصيف الطيبة والفقيرة .

قيل إن روحا هندية كانت تحكمها هي أمهم .. كانت تعيش في أعلى قمة وكانت تفتح الأبواب وتغلقها في الصباح والمساء .. كانت تعلق الأقمار الجديدة في السماء وتقطع القديمة لتصنع منها النجوم . في وقت الجفاف كانوا يستعطفونها فتسبح سحب السماء من نسيج العنكبوت وندى الصباح لتصنع ندف قطن وتذفها فوق المرتفعات لتطفو في الهواء حتى تذيبها الشمس .. هكذا تهطل الأمطار فينمو العشب وتتضج الفاكهة ويستطيل القمح بوصة في الساعة .

أما إذا تضايقت فكانت ترسل سحبًا متعفنة سوداء كالحبر .. ثم تنفجر السحب فتغرق الوديان !

يقول الهنود إنه في الزمن الغابر كانت هناك (ماتيتو) أو روح تجول في مرتفعات (كاتسكيل) وتتلذذ بجلب المصائب على الهنود الحمر . أحيانا تتخذ شكل دب أو فهد أو غزال وتأخذ الصيد في رحلة مرهقة مضلة عبر الغابات ، ثم تنفجر صيحة : هو ! وتتركه وحده وسط إعصار مدمر ..

ما زال مسكن الماتيتو موجودًا .. إنها صخرة عملاقة في أبعد موضع من التلال تلتف حولها الكروم والأزهار البرية ، ويطلقون عليها اسم (صخرة الحديقة) . عند أسفلها بركة يعيش فيها مالك الحزين ، وعلى السطح أزهار سوسن ينام فوقها ثعبان الماء . كان الهنود يهابون هذا المكان بشدة حتى إن أجسر الصيادين لم يكن يتبع فريسته هنا ..

ذات مرة ضل صياد طريقه واخترق الغابة حتى صخرة الحديقة ، حيث رأى عددًا من القرع في تجاويف

الشجر . انتزع واحدة منها لكنها سقطت منه بين
الصخور فنار طوفان أغرقه أسفل الوهد . وتناثرت
أشلاؤه بينما واصل الطوفان طريقه إلى نهر هيسون
وهو يتدفق حتى يومنا هذا .. وهو المجرى المائى
الذى يطلقون عليه (كاترز كيل) .

* * *

إيرفنج واشنجتون

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

59

أسطورة سليبي هولو

الفارس مقطوع الراس الذي يعترض طريق نساء الخط الناصب ليلا في

الوسط الهولندي

• الصيغة المربعة التي عليها الشيطان مع (توم وكرو) ..

• (ريب فان ونكل) الذي تلاقى بعليها ثمان عشرين عاماً ..

• الزوجة التي يعطي عنها زوجها خبر الفلاس ..

• هذه بعض الحكايات من عالم (واشنطن إيرفينج) الذي يعرفه القاريون جيداً ..

• هل تعرف معنى أن يكون المربع (مكروم) ؟ ..

• إذن لماذا لا تقرأ الكتاب بدلاً من إضاعة وقتك الصبيح ؟ ..

المؤسسة
العربية للتقنية

الطبع والنشر والتوزيع بالعربية والإنجليزية



الكتاب في ٣٠٩
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم